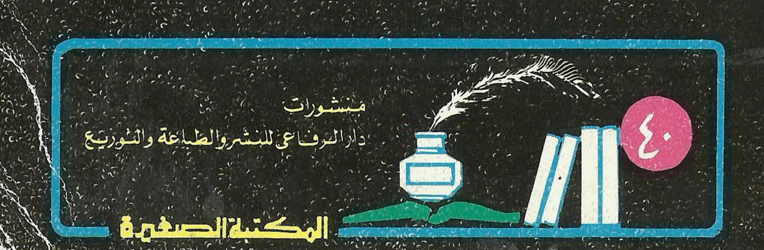
نجوم

في آفاق العربية

د. عبده بدوي



المكتبة الصّغيرة

٤٠

نجوم في آفاق العربيَّة

د . عبده بدوى

الطبعـة الأولى

١٤٠٣هـ ـــ ١٩٨٣م

الطبعـة الثانية

١٤٠٦هـ ـــ ١٩٨٦م

منشورات

دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع

الغلاف من تصميم الفنان : محسن منصور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

- ١ -

الاهتمام باللغة العربية ظل الراية الكبيرة فى السماء العربية حتى اليوم .. فعلى الرغم من أنه كان هناك صراع دائم بين العرب ، وبين من كان يسميهم العرب « العجم » ، وبين من كانوا يحسنون اللغة ، والذين لا يحسنونها من أبنائهم ، الا أنه كان هناك شعور عام بان اللغة العربية كان لا بد من دفعها دفعا رفيقا الى عقول الناس والى قلوبهم فى ضوء الاحساس بعالمية الاسلام ، وأنه يجب أن يكون المسلم فى مستوى هذه الرسالة .

.. وفى ضوء هذا نجد أن رجال العربية ـ عربا وغير عرب ـ قد أحاطوا لغتهم بالعناية والتدقيق ، ومواصلة البحث ، الى حد القول بأن هناك علوما فى هذه الحضارة قد نضجت حتى احترقت ، وكما تعرضوا للكلمة الفصحى ، فانهم لم ينسوا الحديث عن اللهجات ، وضعف النطق ، وتبديل الحروف عند بعض الطوائف وتهشيمها .. الخ .

والظاهرة الجديرة بالتّسجيل هنـا : أن « الامبراطورية العربية الكبرى » قـد سقطت ، وتفتّتت وانحسر العرب عن بعض أماكنها ، الا ّ أن اللغة العربية لم تسقط ، فمع أنّهـا انحسرت عن نقاط صغيرة فى خريطة الحياة العربية الا ّ أنّها ظلّت الحقيقة الكبيرة فى الوجود العربي ، ثم انّها الى جانب وفائها للرسالة السّماوية المهـداة ، لم تَنس الوفاء للحيـاة بما فيها من صراعات ، وبتعبير القرآن من « دَفع » .

.. فى الواقع لقد أعطى الاسلام الكثير للغة العربية ، فقد كانت محصورة من قبل فى عدد من الأمثال والحـكم والخطب والقصائد وسجع الكهان ، وفى الوقت نفسـه لم تكن تفضـل اللغـات التى اندثرت كاليونانية ، والفينيقية ، والقبطية ، والبربرية ، ولـكن الاسلام وضع فيها شحنة سماوية كبيرة ، وفَجّرها تفجيراً ضوئياً رائعاً ، بحيث تغلبت على العديد من اللغـات ، ودخلت فى نسيج الـكثير منها ، لما فيهـا من دقّة واحـكام الصياغة ، وامكانات التّشقيق ، فالعربيـة ـ كما هو معروف ـ تكاد تنفردُ بعموم الاشـتقاق ، واطّراده على تحريك أواخر الكلمات حسب مواقعها من الجملة المفيدة .

- ٢ -

على الرَغم مما يقـالُ عن صـعوبة « الاعراب » الاّ أنه يوصلنا الى قضية كبيرة هي الاعتماد على المفهوم من العبارة ، لا على قضية ترتيب الكلمات ـ كما هو الحال فى اللغات التى تتغيّر أواخـر كلماتهـا فى الاعـراب ـ ففى العربية تتحقّق المرونةُ فى التقديم والتـاخير ، وبخاصة حين يصبح التقـديم

ضرورة كتقديم المفعول فى قوله تعالى : « ايـّاك نعبد » ، ولنترك ابن قتيبة فى « تأويل مُشكل القرآن » يوضح لنا قضية الاعراب ـ وهي أهمّ قضايا النحو العربي ـ فهو يقول : وللعرب الاعرابُ الذى جعله اللهُ وشياً لكلامها وحلية لنظامها ، وفارقاً فى بعض الأحيان بين الكلامَين المتكافئين ، والمعنـَيين المختلفين ، كالفاعل والمفعول لا يفرّق بينهما اذا تساوت حالاهما فى امكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما الاّ بالاعراب ، ولو أن قائلا قال : هذا قاتل أخي ـ بالتنوين ـ وقال آخر : هـذا قاتِلُ أخي ـ بالاضافة ـ لدلّ بالتنوين على أنـّه لم يقتله ، ودلّ حذف التنوين على أنّه قد قـَتَله !

معنى هذا أن العربيـة يمكن أن تعلق قدرات مُذهلة على « التـّنظيم » وبالتالى على « التـّنغيم » وعلى المرونة ، والحيوية، واعمال العقل ، بالاضافة الى الامكانات الجمالية والى ما قيل حديثاً عن اغتصاب العالم عن طريق اللغة !

والملاحظ أن العرب قد شدّدوا على « الاعراب » باعتباره عملية وظيفية حية من وظائف التـّفكير ، وباعتباره ضرورة لِفـَهم القرآن الكريم ، ولهذا رأينا السـّلف يركـّز بصفة خَاصة على قضية الاعراب ، ورأينا علم النـّحو يَبرزُ ـ فى ضوء العديد من الآراء ـ لأنه حدث خطأ فى بعض الكلمات(١).

---

(١) لعل الاعراب كان نتيجة لعدم اهتمام الكتابة العربية فى اول امرها بوضع رموز خاصة للحركات .

ثم ان العلم بالعربية صار من صميم الدين ، فقد اورد ابن تيمية قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من يُحسِنْ العربية فلا يتكلم بالعُجمة فانها تُورث النفاق » ثم كان تعليقه :

اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين .. وأيضاً فان تعلم اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب ، فان فَهمَ الكتاب والسنة فرض ، ولا يُفهم الا بِفَهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجبُ الا به فهو واجب !

.. ثم لقد استمر الاهتمام بعلوم العربية بين العرب والعجم معاً ، فها هو أبو ريحان البيروني يقول : « .. لأن أُهجَى بالعربية خير من أُمدح بالفارسية ! » وها هو ابن شَبرمة يقول : اذا سرّك أن تَعظُم في عين من كُنت في عينه صغيراً ، ويُصغر في عينيك من كان في عينيك عظيماً فتعلّم العربية ، فانها تُجريك على المنطق وتدنيك من السلطان(١) .

- ٣ -

وقد وقف الكتّاب كثيراً عند قضية « اللّحن »(٢) الى حدّ القول بأن اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في

---

(١) أنظر عيون الأخبار ص١٦١ وتامل ما جاء في كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي عن يحيى بن عتيق قال : سالت الحسن فقلت : الرجل يتعلم العربية ، يلتمس بها المنطق ، ويقيم بها قراءته ، فقال الحسن : فتعلمها ، فان الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك فيها !

(٢) يجيء الجاحظ في مقدمة المهتمين ، انظر اليه مثلا في البيان والتبيين ١٧٤/٢ ، ١٧٥ .

الوجه ، ورأيناهم يضعون أبواباً لادانة اللحانين ، كما يضعون أبواباً أخرى بعنوان ، لحن البلغاء ، ومن رأى السلامة فى الوقف على الكلمات ، وقد كانوا على حساسية مرهفة باللّحن ، فقد سجّلوا أول لحن سُمِعَ فى العراق .

وقد استمر الحفاظُ على سلامة اللغة ، فاذا كان النبي عليه الصلاة والسلام قد قال لمن شهده يلحن فى حضرته : « أرشدوا أخاكم »(١) فان هناك من استأذن على عبد الملك ابن مروان وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج ، فكان أن أمر بتغطيته ، فلما دخل الرجل وتكلم ولحن ، قال عبد الملك : يا غلام ، اكشف عنها الغطاء ليس لِلاحن حُرمة !.

وقريب من هذا قول عمر بن عبد العزيز : ان الرجل ليكلمنى فى الحاجة يستوجبها فيلحن فأردّه عنها ، وكأنى أقضُمُ حب الرمان الحامِض ، لبغضى استماع اللحن ! وقول عبد الملك:اللحن هجنة على الشريف ، والعجب آفة الرأي ، وقول أيوب الختياني : تعلموا النحو فانه جمال للوضيع ، وتركه هُجنَة للشريف ، واذا كان بعض الشعوبيين كحمزة الأصفهاني ، قد شهد للغة العربية ، فان أيوب السّجستانى يقول : عامّةُ من تزندنق بالعراق لقلة علمهم بالعربية(٢) .

---

(١) عقب على هذا ابن فارس بقوله : اعربوا الكلام كي تعربوا القرآن ، ومن أقواله : قد كان الناس قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبونه او يقراونه اجتنابهم بعض الذنوب !

(٢) الزينة ص١١٦ .

من كل هذا نعرف أنه كانت هناك حراسة شديدة للغة العربية وعلومها فى كل العصور ، وأنه كانت هناك النظرة الموضوعية لكل ما يتصل باللغة . فاذا كانت الخفارة شديدة عند الكثيرين ، فاننا رأينا الجاحظ وابن قتيبة قد ذهبا مثلا الى أن النوادر والمُلح تسمج بالاعراب : اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، ومُلحة من مُلح الحشوة والطغام ، فايّاك أن تستعمل فيها الاعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حَسَناً ، أو أن تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فان ذلك يُفسد الامتاع ، ويخرجها من صورتها .. كما يقول الجاحظ: ان الاعراب يُفسد نوادر المولدين ، كما أن المُلحن يُفسد كلام الاعراب ، ومن قوله كذلك : اللحن مستحب بين الغرائر(١) ، أما ابن قتيبة فقال فى مقدمة عيون الأخبار : وكذلك اللحن ان مر بك فى حديث من النوادر ، فلا يذهبَنّ عليك أنا تعمّدناه ، وأردنا منك أن تتعمّده ، لأن الاعراب ربما سلب بعض الحديث حُسنه ! ، ونحن لا ننسى هنا أن نذكر أن ابن خلدون فى المقدمة لم يشجب مثلا مخالفة الاعراب لدواعي الموسيقى أو لظهور المعنى .. أمّا ما وراء

---

(١) أنظر البيان والتبيين ١/٨١ ، ١٤٧ ، الحيوان ١/٢٨٢ وقد علق على هذا الدكتور طه الحاجري في البخلاء ص١٢٠ بقوله : الجاحظ كان يرى أن الكلام هو صورة النفسية المسموعة بكل ما فيها من ألفاظ معينة ، وهيئة في الأداء خاصة ، فالتحريف فيها انما هو مسخ لهذه الصورة ، واخراج لها عن أصل وضعها ، ويظهر هذا في النادرة أكثر ، لأن النادرة غايتها الاضحاك ، وهو يعتمد على الشكل والهيئة الى حد كبير ، وهناك رأي يقول : ان الجاحظ رجع عن رأيه هذا !

ذلك فقد كان الالتزام بفصاحة الكلمة المعربة وبزخرفتها .

اذا كان من المعروف أن هنـــاك فى الغرب من اباح كسر البناء المعماري للكلمة ، وكسر عنق البلاغة حتى لا يسقط الكاتب فى الدارج والمسطَّح ، ولأن هناك من يحبون الخروج على « الكمال الأسنى » ، فان رجال اللغة العربية لم يجعلوا لغتهم صلبـة غـير قابلة للمرونة ، فقـد أخضـعوا بعض جوانبها ـ لعوامل تتصل بالنفس وبالزمان ـ ومن ثم كانت كتب « الضرائر » فى العـروض والقـافية مثلا ، بل وجد فيها من يقدم الضرورة على غير الضرورة على ما هو معروف مثلا من بحر «الخفيف» ثم ان هنـــاك تلك المخـالفات التى يسميها رجال النحو المحدثين الظواهر الموقعيـة السياقيـة ، كتحريك المضارع بالكسر اذا جـزم ، وكظـواهر الادغام ، والتخلص من التقـاء الساكنين ، والكسور للتعذر وحـركة الاشتغال .. بالاضافة الى قبـول اللهجات والقراءات ، واذا كان هنـاك من دعا الى شيء من المخـالفة ، لأن فى القـرآن الكريم خروجاً فى غير موضع ، على قواعد النَّحو الشكلية ، فان هنـاك من رأى أن القـرآن الـكريم هو المصـدر الأول لقواعد اللغة وبناء الأساليب وتكوين الجمل(١) .

.. ما أريد أن أصل اليه هو أن فى اللغـة العربية احكاماً ومرونة ، وأنه كان وراء اثراء هذه اللغة فِكر ، وكَدح ،

---

(١) أنظر النقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور ، القرآن الكريم وآثره فى الدراسات النحوية للدكتور عبد العال سالم مكرم .

وان عملية الفكر والكدح قد قدمت صياغة رائعة لهذه اللغة وعلومها ، وبعبارة أخرى كان وراءها فلسفة مستنبطة من تاريخها الحضاري ، ولنتأمل مثلا قول ابن جني « .. اعلم أن علل النحويين .. أقرب الى علل المتكلمين منها الى علل المتفقهين»(١) فالناس لم يواجهوا علومهم بمصطلحاتها فقط، وانما واجهوها الى جانب ذلك بحسهم الحضاري كله ، معنى هذا مرة ثانية أن علوم العربية تقدم لنا - في نصاعة - فلسفة العرب ، وطريقة تناولهم للحياة ، وان العرب لم يكونوا كما هو المتواتر من عبدة الشكل وزخرفته ، فهم لم يقعوا في هذا الا في فترات الهوان العقلي ، وليس معنى هذا أنهم اهتموا بالشكل من أجل الشكل ، ذلك لأنه كان وراء ذلك ما هو أعمق وأخصب ، ولعل خير من يجلو لنا هذا هو ابن جني ، فهو يقول في وضوح : بأن العرب اذا كانت تعنى بألفاظها بالاصلاح والتهذيب والمراعاة ، وبالاحكام عن طريق الشعب والخطب والسجع ، فان المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأفخر قدراً في نفوسها « .. فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها ، وحسنوها ، وحموا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا ترين أن العناية اذ ذاك انما هي بالألفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني ، وتنويه بها وتشريف منها »(٢) .

---

(١) الخصائص ١/٤٨ .

(٢) نفسه ١/٢١٧ ، علق على هذا الدكتور زكي نجيب محمود في المعقول واللامعقول ص٢٣٨ ، بأن المعنى في استعمالنا هو كالاشارة الى المسمى ، والمعنى في استعمالنا الآن هو كالفكرة المراد تحليلها وتقويمها .

- ٦ -

لهـذا وغيره أردتُ أن أقدم لك « طريقة تفكير » فى هـذا الكتاب قبل أن أقدم شخصيات ساطعة فى الحضارة الاسـلامية ـ وبخاصة فى مجال اللغـة ـ ، وأردت أن أحببهم للقـارىء بالحق لا بالزور ، فاذا كان لا بدَّ من صلة تجمعُ بينهم فهو اخلاصهم الشديد للغة العربية وآدابها ، وهي قرابة التفكير بين بعضـهم بعضاً ، وهي أن هذه الحضـارة قادرة على خلق رجالها ، فكما أنَّهم يشـبهون زمانهم فانَّهم فى الوقت نفسـه يشبهون حضارتهم !

.. ومن ثم كان حديث عن أبى الأسود الدؤلي (١٦ ق.هـ) والفرّاء (١٤٠ ـ ٢٠٧) وابن الاعرابي (١٥٠ ـ ٢٣٠) وعلي بن الجهـم (١٨٨هـ) وحمـزة الأصفهاني (٢٨٠ ـ ٣٦٠) وابن جني (٣٠٠ ـ ٣٦٢) والقـاضى الجـرجاني (٣٢٤ ـ ٣٩٢) وابن حـزم (٣٨٤ ـ ٤٥٠) وعبـد الله البطليـوسي (٤٤٤ ـ ٥٢١) وأسامة بن منقـذ (٤٨٨ ـ ٥٨٤) وابن الجوزي (٥٠٨ ـ ٥٩٧) والسلطان الخطاب ابن الحسن (ت ٥٣٣) وشمس الدين الكيزاني (ت٥٦٢) وأبو حيان الأندلسي (٦٥٤ ـ ٧٢٥) والقلقشندي (٧٥٦ ـ ٨٢١) ..

- ٧ -

واخيرا ..

انى رأيت خمسة عشر كوكباً .

وقد أردت أن يدوروا فى فلك القــارىء العــربي ، وان يكونوا « رؤيا عصرية » تطوف فى نفس هذا الانسان ، فهو الآن فى حاجة الى حراسة شديدة برجال كهؤلاء الرجال ؟

الرياض فى :
٢١ من صفر ١٣٩٩هـ
الموافق ٢٠/١/١٩٧٩م

الدكتور/عبده بدوى
كلية الآداب ـ جامعة الكويت
ورئيس تحرير **مجلة الشعر**

■ □ ■

١ ـ أبو الأسود الدُّؤلي

من الشخصيات الجهيرة فى التاريخ الاسلامي شخصية ظالم بن عمرو بن ظالم .. الخ المشهور بأبي الأسود الدؤلي ـ الدئيل دويبة صغيرة شبيهة بابن عرس ـ وفى الواقع ان المساحةَ الزمنية التى شغلتها هذه الشخصيةُ من ١٦ ق.هـ الى ٦٩ هـ كانت المساحة التى تشكَلت فيها تلك النضارة الأولى للاسلام ، ثم انَّه فى هذه المساحة الزّمنية الرحبة حرص بمهارة وبحذق على أن يتواءم مع كافة الاتجاهات ، فقد عَمِل لعمر ، وعثمان ، وعلي ـ عليهم رضوان الله ـ وكما استعمله زيادُ بن أبيه على الخراج ، فانه وُلِّي قضاءَ البصرة فى ولاية عبد الله بن العباس ، وحين آلت الأمور تماماً الى بنى أمية رأيناه لا يتوارى فى هذا العصر ، وان كان ما نعرف من الأخبار التى تُروى عنه متصلة بمعاوية تؤكد

أنّ معاويةَ لم يقبل عليه تماماً من كل قَلبـه ، كما أنّ هنـاك نصوصاً تدل على أن أبا الأسود كان يبادله نَفس الأحساس !

.. ولـكن هل معنى هـذا أنّه لم يُحسب على الشـيعة ؟ وهل معنى هـذا أنه جارى الظروف السـائدة بعض الوقت ؟ فى الواقـع انا نحس دائمـاً بفكرة ولائه للأمام علي فى كل الأحوال ، فقد عاش فى حيـاته أثيراً عنده ، ومقـدّماً فى مجالسـه ، على حدّ ما نعـرف مثلا من النـاس الذين اختصموا عنـده مرة ، وحـين ارتفعت أصـواتهم فيمن هو أشـعر العَرب رأينا الأمام علي يترك « فَصل الخطاب » لأبى الأسود قائلا : « قُـل يا أبا الأسود » !

ثم ان عليّـاً حـين اغتيـل ، صـعد المنبَر ، وخطَب خطبة حزينة انحـاز فيهـا لآل البيت ، وقيل انه ظل يبكى «حتى اختلفت أضلاعُـه ! » ، وفى الوقت نفسـه رأيناه يأخذ بِحَسم البيعـَة للحسن ، ولكن معاوية سرعان ما دبّ اليه ، فقد

كاتبه فى الصُّلح ، ودعاه الى أن يأخذ له البيعة فى البصرة ، ولكنَّه تشدّد فى أول الأمر ، ثم يقول تلك القصيدة الغضبى التى أولها :

ألا أبلغ معاوية بن حرب
فلا قَرّت عُيون الشّامتينا

غير أن الأمور حين استقرت تماماً من حول معاوية ، رأيناه لا يجد بداً من وضع أسلحة الكراهية ، ومن التقرب من العهد الأموي ، وان كانت بين الحين تظهر بعض « الانفجارات » المأمونة العاقبة ، فحين كان نازلا فى بنى قشير وكانوا « عثمانية الهوى » ، وعلى الرغم من أن زوجته أم عوف كانت منهم ، الا أنهم كانوا يؤذونه ، ويسبونه ، ويحصبونه بالليل ، وينالون عليَّاً بحضرته ، ومن هنا رأيناه يقول منفجراً :

يقول الأرذَلُونَ بنو قُشَير :
طوالَ الدّهر لا تَنسى عَليَّا

فقلت لهم : وكيف يكون تَركى
من الأعماق ما يُجدى عَليًّا

أحب محمداً حباً شديداً
وعباساً ، وحمزةَ ، والوصيا

وجعفرَ ــ ان جعفر خَيرُ سَبط
شَهيداً فى الجنَان مُهاجريا

بنو عمّ النبي ، وأقربُوه
أحبُّ الناس كُلِّهم اليَّا

فان يك حُبُّهم رُشداً أُصِبْهُ
ولستُ بمخطىء ان كان غَيَّا !

.. على أن هذه الشيعية ظلَّت كامنة فيه ، وقد وصل الأمر الى حدّ أن الحجاج قال حين مات : أما والله لو أدركت أبا الأسود لقتلته ، لأنه كان شيعياً !

واذا كان هذا الجانب الشيعي هام فى تحديد شخصية أبى الأسود ، فان هناك جانباً آخر هاماً هو وضعُه علم النحو ، أو بعبارة أدق مشاركتُه

الذكية فى علم النّحو لأنه مسبوق بارهاصات لا خلاف عليها .. وابتداء فقد كان العربُ يتكلمون العربية « بالسليقة » ولكن حين انتشر الاسلام بدأ الاطار اللغوي ينفجر فى أكثر من مكان ومع أن الذين كتبوا فى هذا يكادون يذهبون الى أن السبب هو دخول غير العرب فى الاسلام ، الا أنه ينبغى أن نعرف أن بعض العرب الخلّص كانوا يخطئون الخطأ الفاحش ، وكانوا يخالفون أحياناً القياس ، فقد جاء مثلا فى طبقات ابن سعد : أن عمر مرّ بجماعة يترامون فرمى أحدهم ، وقال الآخر « ارمنى » فقال : ان سوء اللحن شر من سوء الرّمي ، وهناك أمثلة عديدة منها مثلا أن الخليفة الوليد ابن يزيد كان لحّاناً ـ وهو من هو فى قريش وغير مخالط للعجم ـ ومما يُروى عنه فى هذا أنه قرأ مرة « يا ليتُها كانت القاضية » بضم التاء فى ليت ومن هنا كان ردّ عمر بن عبد العزيز عليه « يا ليتَها كانت القاضية عليك » .

.. وعلى كل فنحن نرى أن عمر بن الخطاب قد اهتم اهتماماً خاصاً باللغة ، وقد كتب الى أبي موسى « .. أما بعد فتفقّهوا فى الدين ، وتعلّموا السُّنة ، وتفهّموا العربية .. وليُعلم أبو الأسود أهلَ البصرة الاعراب » .. ويقال ان السببَ فى وضعه علم النحو فيه كلام كثير منه أن ابنته قالت له : يا أبت ، ما أشَدُّ الحر ـ بضم الدال المشددة ـ فقال اذا كانت الضعفاء ـ يقصد الشمس ـ من فوقك ، والرمضاء من تحتك ، فقالت : انّما أردتُ أن الحرَّ شديد ، فقال لها : كان عليك أن تقولى : ما أشدَّ الحر ـ بفتح الدال ـ وقيل انّه نقلَ هذا الى الامام علي قائلا : يا أمير المؤمنين ، ذهبت لغةُ العرب لمَّا خالطت العجم ، وأوشك ان تطاول عليها الزمانُ أن تضمحل ، فأمره فاشترى صحفاً بدرهم ، وأملى عليه : الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف ، ثم رسم أبو الأسود الأصول بعد ذلك ، وهناك رواية

أخرى عن ابنة له قالت التعجب ـ ومن الغريب شيوع اللحن فى بيتــه ! ـ ما أحســنُ السماء ـ بضم النون فى أحسن ، وهنــاك رواية ترى أن عبد الله بن العباس حَضَّهُ على كتابة النَّحو ، ثم تتوالى الروايات ، ومنهــا نعرف أن زياد بن أبيه دخلت عليه جماعة تتخاصم ، فقال واحد : أصلح الله الأمير ، توفى أبانا وترك بنون ! فتعجب زياد ، وطلب أبا الأسود ثم قال له : ضع للناس العربيــة ، وقيــل ان زياداً قال لــه : ان بَنِيَّ يلحنون فى القــرآن ، فلو رسمت لهــم رسماً ، فَنَقط أبو الأســود المصحفَ ، وقيــل ان زياداً قال : ان الظئر ـ يريد المراضع من الموالى ـ قد أفســد ألســنة الذين أرضَعنَهُم من العرب ! وللتوفيــق بين العــديد من الروايات نعرف أن أبا الأسود خُصَّ بتنظيم عملية البدء ، ونعرف أن عمر ، وعلياً ، وعبد الله بن العباس ، وزياداً كانوا يرونه المرجع فى هــذا ، وفى الوقت نفسه نرى أن الامام علي قــد رسم له الحــدود الأولى

لهذا العلم ، وأبو الأسود نفسه يقول : « أخذتُ حدود هذا العِلم عَن علي عليه السلام » ومن عملية الاجماع هذه نصل الى أنه واضع علم النَّحو ، واذا كان المستشرق « ركندروف » لا يرى هذا فى دائرة المعارف الاسلامية ، فان « فون كريمر » فى كتابه (الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية) يقول ان القول بأن اللحن سبب فى وضع النَّحو لا يُعوَّل عليه ، ذلك لأن النَّحو العربي من وضع الأجانب من الآراميين والفُرس ، وقد أوجدته الحاجة التيأحس بها هؤلاء الأجانبلتعلم الكتابة العربية وقراءتها على وجه صحيح ، ثم ان الدكتور مصطفى نظيف فى مجلة (المجمع اللغوي) بمصر أكد على أن يعقوب الرهاوي كان معاصراً لأبى الأسود وأنه وضع فى النحو السرياني كتاباً ركز فيه على الحركات والنقط ، وأن محاولة أبى الأسود منظور فيها الى محاولته .

وللتدليل على رسوخ الرجل وقدرته على

الابتكار نضعُه فى دائرة ما قيل عنه ، فقد قال الزُّبيديُّ فى طبقات النحويين : « .. أبو الأسود عَلَوِيُّ الرأي ، كان رجل البصرة ، وهو أول من أسس العربية » وقد قال عنه ابن سلام الجُمحي انه « أولُ من أسس العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ووضع قياسها ، وكان علويّ الرأي » وفى صبح الأعشى « انَّه وضع حركات النحو لا غير » أما الجاحظ من قبل فيرسم له صورة بارزة حين يقول : « .. انَّه معدود فى طبقات من الناس ، وهو فى كُلِّها متقدم ، مأثور عنه الفضل فى جميعها ، كان معدوداً فى التابعين، والفقهاء ، والشعراء ، والمحدثين ، والأشراف ، والفرسان ، والأمراءِ الدُّهاة ، والنَّحويين ، والحاضري الجواب ، والشيعة ، والبخلاء ، والصُّلعِ الأشراف ، والبُخر الأشراف » .

.. وهناك بعض الأخبار التى توضِّح معالم شخصيته ، فقد قال له رجل : أنت والله ظريف لفظ ، وظَرفُ عِلم ، ووعاء حِلم ، غير أنك

بخيل، فقال : وما خيرُ ظرف لا يمسِكُ ما فيه !
وقد سلَّم عليه أعرابي فقال : كلمة مقولة ،
فقال : أتأذن لى فى الدخول ؟ قال : وراءك
أوسَعُ لك ، قال : هل عندك شيء ؟ قال : نعم ،
قال : أطعمنى ، قال : عيالى أحقُّ منك ، قال :
ما رأيت ألأم منك ، قال : نسيت نفسك ..

ويبدو أنه ظلّ مُحتفظاً بالحيوية ، وبالبقاء
فى دائرة الضوء ، فقد ظل مع علوّ سنه يركب
الى المسجد ، والسوق ، والأصدقاء ، فقال له
رجل : يا أبا الأسود أراك تكثر الركوب ، وقد
ضَعُفتَ عن الحركة ، وكَبِرتَ ولو لزمت
منزلك كان أودع لك ، فقال له أبو الأسود :
صدقتَ ، ولكن الركوبَ يَشُدُ أعضائى ،
وأسمع من أخبار الناس ما لا أسمعه فى بيتى ،
واستنشى الريح ، وألقى اخوانى ، ولو جلستُ
فى بيتى لاغتمّ بى أهلى ، وأنِس بى الصَّبيّ ،
واجترأ عليّ الخادم ، وكلَّمنى من أهلى من يهابُ
كلامى ، لأُلِفهم اياي ، وجلوسهم عندى ، حتى

لعل العنز أن تبول عليّ فلا يقول لها أحد هُس ».
ثم انه على الرغم من كبر سنه عزم على الخروج الى فارس ، فقالت ابنته : يا أبتِ انَّك قد كبرت ، وهذا صميمُ الشتاء فانتظر حتى ينصرم ، وتسلكُ الطريق آمناً فانى أخشى عليك . فقال أبياتاً :

ولا تحسبينى يا بنتى عَز مَذهبى
بظنكِ .. ان الظنّ يكذب ذا العقلِ
وانى ملاق ما قضى اللهُ فاصبرى
ولا تجعلى العِلمَ المحققَ كالجهلِ
وانك لا تدرين : هل ما أخافُه
أبعدى يَأتى فى رَحيلى أو قَبلى !

■□■

ومهما يكن من شيء فقد عاش أبو الأسود حياة خصبة ، من معالمها خدمتُه للغة العربية باعتبارها « وعاء القرآن » وباعتبارها المسئولة

عن اكمال الشخصية ، وعن فتح أبواب لا تنتهى فى الحضارة العربية .. لقد كان بدءاً لا يُنسى ، لأنه كان بدءاً حضارياً ، نَعِم به كل المنتمين الى حضارة العرب !



٢ ـ الخليل بن أحمد

اذا قيل عن الخليل أحمد بأنه قمة القمم فى عالم الدراسات العربية القديمة . فان الانسان لن يذهب بعيداً . ذلك لأنه كان المثال الواضح على العطاء العبقري ، وعلى اعطاء « التوقيع » الذى لا يمكن أن يضيع بين العصور . ثم ان سيرته تدلُّ على التفرُّد فى العديد من الميادين . وعلى اعطاء اللمسة الجديدة . خاصة وأننا نعرف أنه مدَّ جناحيه على مساحات كبيرة من المعرفة في الفترة التى عاشها بين الميلاد والموت (١٠٠ ـ ١٧٠ هـ) وأول ما يلفتنا منه جانب مُغفَل وهو موقفه من التربية والتعليم . فهو مثلا يقول «اجعل تعلمك دراسة لعلمك . واجعل مناظرة المتعلم تنبيهاً على ما ليس عندك» ولما كان الشيخ الأكبر للنحاة فانه يقول « لا يصل أحد من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلم ما لا يحتاج اليه » كما قال : « تكثَّر من العلم

لتعرف . وتقلّل منه لتحفظ » كما تنبّه الى عملية توصيل المعرفة فقال « اذا نُسخ الكتاب ثلاث مرّات تحوّل الى فارسية » .

.. من هذا وغيره نستطيع أن نضعه على رأس الذين شغلوا بقضية التّربية والتّعلم فى الحضارة العربية . وما أروع قوله : « اعمل بعلمى ولا تنظر الى عملى ينفعك قولى ولا يضررك تقصيرى ! » فاذا أضفنا لهذا سلوكه العملى فى الحياة . وحياته البسيطة الخالصة لوجه العلم أدركنا أنّه كان جنّة زمانه . وعيد عصره . قال اليزيدي : رأيتُ الخليل قاعداً على طنفسة فأوسع لى فكرهتُ التّضييق عليه . فقال : انّه لا يضيقُ سمّ الخياط على متحابين ولا تسع الدنيا متباغضين !!

.. وتاريخ الرّجل يذكر لنا أن الناس فتنوا به فى حياته وبعد موته . فهناك من لا يعدل به انساناً فى الحضارة العربية ابداعاً . وهناك من يرى أنه أحسن فقط الاطلاع على ثمار

السنسكريتيّة . واليونانية، والفارسية. وكمادة تصارع من فى القمم نجد أن هنـاك من ظلمه ـ وان كنا نعرف من سـيرته أنه لم يكـن يحب الظلم لأحد ـ فالنظّام مثلا قال عنه : «.. توحّد به العجب فأهلكه . وصوّر له الاستبدادُ صواب رأيه فتماطى ما لا يُحسنه ، ورام ما لا يناله ، وفتنته دوائره التى لا يحتاج اليها غيره» والجاحظ يتـكلم بنفس أسلوب النظـام فيقول ـ وآه من تحاسد الـكبار !! ـ غرّه من نفسـه الذى غرّ الخليل بن أحمد حين أحسن فى النّحو والعروض. فظن أنّه يحسنُ الكلام وتأليف اللّحون .

والواضح للمتتبع سيرته أنه كان يحسـنُ فى كل شىء يمدّ له يده وفكره . فاذا كنا سنكتفى بما لا جدال فيـه على رأي الجـاحظ . فاننا كما عرفنـا له ريادة فى أمور التّربيـة والتّعليم . نعـرف له ريادة فى عالم البلاغة . فهو أول من أطلق مصطلح الألغـاز على أشـكال بعينهـا من الـكلام اسـتغلها بعد ذلك « قُدامة » استغلالا

ذكياً . كذلك يعتبرُ أوَّل من استخرج ما يسمَّى « المُعَمَّى » ونظر فيه ، ويقال ان السبب فى هذا أن يونانياً كتب اليه كتاباً باليونانية فعكف عليه شهراً حتى فهمه . والملاحظ أن الجاحظ يلاحقه فيقول : ليس المعمَّى بشىء !!

أما دوره الذى لا خلاف عليه عند الكثيرين ، فهو دوره المعجمي والنَّحوي ، واذا كان البعض يرى أن السنسكريتية كانت وراء معجمه ، فان الملاحظ من خلال « الكتاب » لسيبويه أن الكتاب ينهج منهج الخليل ، وينتفع بالكثير من آرائه ، وسيبويه لا يخفي هذا . فاذا جئنا الى الدور الذى لا خلاف عليه عند المنصفين فهو دوره فى ابتكار علمي العروض والقافية . فقد وصل الى رصد الأنغام السَّابحة فى العربية بما يشبه المعجزة . ذلك لأنه توصل الى البحور الستة عشر ، فتلميذه الأخفش كان جهده أنه أعطى البحر السادس عشر اسماً . فقد كان الخليل يعرفه ولكنه أهمله لقلة النظم فيه ــ يلاحظ أن هذا البحر يجىء الآن فى مقدمة ما يكتب فيه

الشعراء ـ ثم انه كتب فيه :

سئلوا فأبوا فلقد بخلوا
فلبئس لعمرك ما فعلوا

المهم أنه أحكم عقله على التراث الشعري فالذى استدرك عليه قليل . مثل قصيدة عَبيد (أقفر من أهله ملحوب) ويمكن أن يدخل فى وزن مخلّع البسيط مع الأقرار ببعض الزّحافات . ومثل قصيدة عدي بن زيد : (قد حان أن تصحو أو تقصر) ويمكن ردّه الى بحر السريع مع وجود الزّحاف . ومثل قصيدة المرقش (هل بالدّيار أن تجيب صمم) ويمكن ادخالها كذلك فى السَّريع ..

صحيح أنه يمكن القول من خلال عصرنا الآن بأنّه جافى بعض الأسس العلمية حين جعل مثلا من « مستفعلن » تفعيلتين . ومن فاعلاتن تَفعيلتين . حرصا منه على اطراد الأسباب والأوتاد . وما يصيبهما حسب تقسيمه من زحافات وعلل . علما بأنهما من الناحية الصوتية

شيء واحد . ولكن ما يُؤخذ عليه يظل استثناء على قاعدة كبيرة من فهمه وتصوره داخل مفاهيم عصره .

.. مهما يكن من شيء فانه أدرك موسيقى الشعر العربي حتى عصره ، وصاحب هذا ادراكه لفن الموسيقى ذات القياس الزمني المحدود . صحيح أن له كتابين ضائعين في القياس والأنغام . ولكن هناك شواهد حية نراها عند عدد من الذين انتفعوا بجهوده في الموسيقى مثل الكندى واسحق الموصلى والفارابى واخوان الصَّفا . فكما خرج سيبويه من عالمه لأنه لم يكتب كتاباً في النَّحو ، فان الذين اشتغلوا بالموسيقى انتفعوا من كتابيه اللذين لم يصلا لنا . وتبقى بعد ذلك الدّعوى بأنَّه جمَّد الشعر العربي . وحبس الشعراء في أطره . وهي قضية لا يسأل عنها ، وانما يسأل عنها كسل الشعراء والنقاد الذين لم يبدعوا كما أبدع . ولم يحسنوا «استقبال» الأنغام السابحة في عصورهم . كما

أحسن هو استقبال الشعر الذى انتهى اليه .
وهم ينسون أنه حرّض الباحثين على التّجديد .
وأنه فتح للشعراء أبواباً لم يلجها الكثيرون ،
فهو صاحب المقولة التى تقول « فالشعراء أمراء
الكلام يصرّفونه أنّى شاءوا . ويجوز لهم
ما لا يجوز لغيرهم من اطلاق المعنى وتقييده .
ومن تصريف اللّفظ وتعقيده . ومدّ المقصور
وقصر الممدود . والجمع بين لغاته . والتفريق
بين صفاته . واستخراج ما كلّت الألسن عن
وصَفه ونَعته . والأذهان عن فهمه وايضاحه .
فيقرّبون البعيد . ويبعدون القريب . ويحتجّ
لهم ولا يحتجُّ عليهم » . وقد علق حازم
القرطاجني على هذا بقوله : « فلأجل ما أشار
اليه الخليل ــ رحمه الله ــ من بعد غايات الشعراء .
وامتداد آمادهم فى معرفة الكلام واتساع مجالهم
فى ذلك يحتاج أن يحتال فى تخريج كلامهم على
وجوه من الصحة . والتوقف عن تخطئتهم فيما
ليس يلوح له وجه » وكرّر هذا كثيرون

.. وهكذا يتأكد لنا أن العباقرة لا يصادرون على التطور . وانهم يفتحون دائماً فى تراثهم بابا للابداع . وتجاوز ما هو موجود بالفعل .

بقي أن نذكر أن الناس قالوا عنه : اذا كان هناك رجل من ذهب ومسك فهو الخليل بن أحمد. وأنه حين دفن قال عنه رؤبة بن العجاج : دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم !!

٣ – أبو زكريا يحيى الفرّاء

من السِّمات البارزة فى الحضارة العربية أن هذه الحضارة لا تُسلِّم مفاتيحها الا لهؤلاء الطموحين الذين لا يقفون عند حد فى محاولة التَّعرف على كُنهِها ، والوصول – بدأب – الى جوهرها . ذلك لأنها حضارة مركَّبة لا يمكن الوصول الى أسرارها الا بالمعاناة والجهد ، ثم انَّها تنظر الى الأشياء من منظور واحد مُتصل بالله . وخاصة اذا عرفنا أن هذه الحضارة قد حدث بينها وبين الانسان فى العصر الحديث نوع من القطيعة الحادة . الى حد أننا نراه فى كثير من الأحيان منتزعاً تمام الانتزاع من هذه الحضارة، ومنخلعاً تمام الانخلاع منها . ومن هنا فهو يجد مشقة فى محاولة الامساك بشكل وروح هذه الحضارة .

ثم ان هذه الحضارة مجدولة جدلا محكماً من العديد من الخيوط بحيث يصعب تمييز خَيط من الآخر على نحو ما نعرف مثلا من طبيعة تراثها ، فنحن اذا أخذنا كتاباً مثلا من كُتب الطبقات المعروفة ، لا نجد تاريخاً لشخصيات فقط ، ولكن نرى الدنيا كلها من خلال الشخصية ، ونحن اذا أخذنا مفسِّرين كالطبري، والقرطبي، والزّمخشري ، وابن كثير ، والنَّسفي ، وجدنا أنفسنا فى عالم يموج بعلوم اللغة ، وبالعلوم الانسانية ، وبالشعر ، وبعشرات من العلوم الأخرى ، وقد يتوهم البعض أن فى هذا نوعاً من الخلط ، ولكنه فى اطار عصره يوضح ما كان يُطلب من المسلم من تكامل المعرفة .

.. نقول هذا لنصل منه الى أن حضارتنا كانت دائماً منشورة الذراعين للأفكار وللناس ، وانها لم تفتح ذراعيها للعرب فقط ، ولكنها فتحت ذراعيها وعقلها وقلبها للحياة ، فاذا أخذنا مثلا رجلا دَيلمِيّ النَّسب ، فارسي الأصل هو

« أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء » المولود عام (١٤٠هـ ــ ٢٠٧هـ) وجدناه دليلا قوياً على سماحة الاسلام . وعلى أن اللغة العربية كانت تُرحّب بالمغامرات العقلية .

فمع أنه فارسيّ ــ وهناك من يُرجّح معرفته بالفارسية ــ الا أن اللغة العربية فى هذه الفترة كان لها من السّطوة والمكانة ما عبَّر عنه الأصمعي بقوله : انه كان من ضعة الفرد أن يتكلم بالفارسية ، وفى ضوء هذا نرى أن الفرّاء يدير ظهره الى حد ما للفارسية ، فى الوقت الذى يُعطى فيه لسانه وعقله وقلبه للغة العربية ، ومن هنا نراه يصل الى تلك المكانة التى أهّلته الى أن يقال عنه : انّه أمير المؤمنين فى النّحو ، ويُقال : انه شَيخ النُّحاة ، ويُقال انه كان راساً فى قوة الحفظ ، بحيث أملى تصانيفه كلّها حفظاً ، ويُقال : انه حَصّل اللغة ، وخلّصها ، وهذّبها ، وضبطها ، ويسّرها ، فلولاه ما كانت اللغة ، ولا كانت العربية ، ويُقال : انّه جمع

الى علم الكوفيين علم البصريين ، ويقال : انه كبير العقل .. وعلى كل فقد توفَّر على علم النَّحو بصفة خاصة ، الى حدّ أن هناك من يربط بين لقب الفرّاء وبين امتيازه فى هذا الجانب ، فانَّ الأنباري يقول فى كتاب (الأضداد) : «..وبعض أصحابنا يقولُ : انَّما سُمِّي فَرَّاء لأنه كان يُحسِنُ نظم المسائل ، فشُبه بالخارز الذى يَخرِزُ الأديم ، وما عرف ببيع الفراء ، ولا شرائها قط ، وقال بعضهم : « سُمِّي فرّاء لقَطعه الخصومَ بالمسائِل .. من قولهم : قد فَرَى اذا قطع ! »

■□■

لقد وُلِدَ الفرّاء فى أسرة متدينة ، ومُحِبَّة بصفة خاصة لآل البيت الى حدٍّ أن والده ـ زياد الأقطع ـ قد قطعت يده وهو يجاهد مجاهدة شديدة مع الحسين ، وقد كان هذا ـ وغيره ـ دافعاً للبعض الى أن يسلكه فى الشيِّعة ، وذهب البعضُ الى أنَّه كان من أهل السُّنة ، وقال

البعض : انه كان من المعتزلة .. ومما يدل على أخذه بآراء أهل السُّنة قولُه بالاعجاز اللغوي للقرآن الكريم . وانكاره على أبى عبيدة الذهاب الى تفسير القرآن بالرأي ، بالاضافة الى احتجاجه بالحديث الشريف ، والى أخذه «بالاجماع» .. ومما يدل على اعتزاله « تأوّله المعنى على نحو ما يفعل المعتزلة ، وكمخالفته لأهل السُّنة فى مسألة « القدر » .. ومن يرى تشيعه يقول : انه كان فقط « يتستَّر » بالاعتزال ، بل لقد وضعه صاحب رياض العلماء فى أعيان الشيعة، ثم انه «كوفي» والكوفة علوية . وفارسي ولفارس ميل – أيّ ميل – الى العلويين ، ثم انه لا يعيد الخافض على كلمة « آله » كما فى قوله مثلا : « تمّ الكتاب بحمد الله وعونه وصلواته على سيدنا محمد وآله » – ولهذا دلالتُه وهو فى الوقت نفسه أسلوب من أساليب الشيعة –

على أن المتتبِّع لتاريخ الرجل يحسّ أنه كان رحب النظرة ، واسع الاطلاع . تكاملي المعرفة،

بحيث يمكن القول بأنه انتفع بكل التيارات الفكرية التى كانت سائدة فى عصره ، وبحيث يصعُب ضغطه فى اطار واحد منها !

.. ولعل مما يؤيد هذا اهتمامه بالكثير من العلوم كالفقه ، والنجوم ، والطب ، وأيام العرب ، وأخبارهم ، والشعر .. الخ ، بل انه يَصعبُ وضعُه فى مدرسة البصريين فقط ، أو فى مدرسة الكوفيين فقط ، ذلك لأنه انتفع بالمدرستين معاً ، ومع أن انتفاعه بمدرسة الكوفيين أكثر وأعمق ، الا أنه يمكن القول بأنه وضع أساس مدرسة جديدة فى علم النَّحو هي « المدرسة البغدادية » وقوام هذه المدرسة كما يرى الدكتور أحمد مكي الأنصاري : التحرّر ، والمزج ، والتجديد ، وما المذهب البغدادي الا الاعتدال بين المتطرفين من هؤلاء وأولئك ، ثم انه فى الأساس الفكري يرتكز بوضوح على تراث المذهبين : الكوفي والبصري .

ويمكن أن نرى هذه النَّظرة فى تصوره لتفسير القرآن الكريم ، فهو يتوسَّع ـ كما يقول الأستاذ محمد خلف الله أحمد ـ فى التخريج النَّحوي، وفى بيان القراءات ، وفى أوجه التفسير .. الى جانب العناية بالشرح اللغوي ، والتنبيه الى ظواهر الاستعمال ، والاستشهاد بالشِّعر ، كما نراه يهتم بالتناسق الصوتي فى القرآن الكريم ، وربطه بالفطرة السَّليمة ، وقد تحدث عن « الموسيقى السابقة » و « الموسيقى اللاحقة » وذهب بعيداً ـ وعميقاً ـ فيما سمَّاه « النَّسق الصوتي » فى الآيات .

.. ونظرة واحدة الى مؤلفاته ترينا هذا الثراء العقلي ، وهذا التمكن الأمكن من لغة العرب ، فمن مؤلفاته :

١ ـ اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام فى المصاحف .
٢ ـ الأيام والليالى والشهور .
٣ ـ آلة الكتاب .

٤ ــ البهي أو البهاء .
٥ ــ التحويل .
٦ ــ التصريف .
٧ ــ الجمع واللغات .
٨ ــ الجمع والتثنية فى القرآن .
٩ ــ الحدود .
١٠ــ حروف المعجم .
١١ــ فعل وأفعل .
١٢ــ الكتاب الكبير فى النّحو .
١٣ــ لغات القرآن .
١٤ــ ما تلحن فيه العامة .
١٥ــ مجاز القرآن .
١٦ــ المذكر والمؤنث .
١٧ــ مشكل اللغة الصغير .
١٨ــ مشكل اللغة الكبير .
١٩ــ المصادر فى القرآن .
٢٠ــ معاني القرآن .
٢١ــ المقصور والممدود .

٢٢ـ النوادر .

٢٣ـ كتاب الهاء .

٢٤ـ كتاب الواو .

٢٥ ـ الوقف والابتداء .

٢٦ـ كتاب يافع ويافعة .

■□■

وليس معنى هذا أن هذه الكتب المتخصصة كانت بعيدة عن أيدى الناس وعقولهم ، أو أنَّها كانت متداولة بين الخاصة فقط . فهو قد يسَّر علم النحَّو بصفة خاصة الى حد القول فيه « ان دام هذا على هذا علم النَّحو الصبيان » .. ثم ان بعض الورّاقين فى عصره حين رأوا اقبال الناس على كتبه احتكروها وضنوا بها ـ كما قيل ـ على الناس ، على نحو ما فعلوا بكتابه « معانى القرآن » فقد قالوا : لا نخرجه الا لمن أراد أن ننسخَهُ له على خمس أوراق بدرهم ! »

وحين حدثهم الفرّاء فى هذا قالوا : دَعنا نَعِش ، فقال : قاربوهم تنتفعوا وينتفعوا ، ومازالَ بهم حتى قالوا : نحنُ نبلغ الناس ما يحبون ، ونسخوا كل عشر أوراق بدرهم !!

■□■

.. ولقد ساعد الفرّاء على التألق والظهور انه عاش فى عصر الرشيد ، وفى عصر المأمون ، حيث كان ما يترجم يوزن بالذهب ، وهو نفسه قد وجد التقدير كل التقدير فى عهد المأمون ، ذلك لأن الكسائي زحزحه عن مجلس هارون الرشيد ، أما المأمون فقد عرف له قدره ، وقدّمه ، وأسند اليه أمر تعليم ولديه ، وكان يسر حين كان يعرف أن ولديه يتنافسان على تقديم نعلي الفرّاء ! ، وقد صدق ابن الجهم حين قال فيه :

نحوه أحسنُ النَّحو فما فيه
معيب ، ولا به ازراءُ

ليس مـن صـنعه الضـعائف لـكن
فيـه فقـه ، وحكمـة ، وضياءُ

وبيـان تُصغى القـلوب اليـه
تجتبيـه الملـوك والحكماءُ

ليس من قال بالصـواب كمـن قال
بجهـل .. والجهـل داء عياءُ !!

■□■

من كل هذا نرى أن الرجل شغل عصره ، وترك جـديداً يمكن أن تفيـد منه كل العصور ، وفى الوقت نفسه نعـرف أن هنـاك أسـباباً كثيرة لسموقه ولازدهاره ، لعله يجيء فى مقدمتها أنه أعطى العربية الـكثير ، فـكان أن أعطته هـذا النوع من « البقاء المتفرد » ، وهكذا ظل جديراً بألقـابه الكثيرة التى فى مقدمتهـا . أنه كان أمير المؤمنين فى النّحـو ، وان كان هـذا لا يمنع من احسـاسه بالمـرارة من عصره ، ولهـذا كانت صرختُه التى تقول : لا تأتى الدنيا على استحقاق!

٤ ـ ابن الأعـــرابي

من العلامات المضيئة فى الثقافة الاسلامية ، أن كلَّ انسان ـ بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو طبقته ـ يستطيعُ أن يمارس ابداعَهُ فى كافة الميادين من غير مُعوِّق .. فالاسلام يُحرِّضُ الناس على السباق الذكيّ والمستمر فى كافة الميادين ، والاسلام يعتبر الحَجر على العقل وصمة ، ويرى على حد تعبير فقهائه أن من دخل الحق بالتَّقليد خرج منه بالتَّقليد ، وفى ضوء هذا كان ينظر فى غير رضى الى الجامدين الذين يقفون فى أماكنهم دون أن يتحركوا مع الحياة ، ومن هنا كانت هذه النَّضارةُ العقلية التى شكَّلت العديد من جوانب الحياة ، والكثير من جوانب العصور .

ونحن حين نريد أن نأخذ دليلا حياً على ما نقول ، تتشابكُ أمامنا الأمثلةُ حتى لتصبح غابة فى ميادين الفكر ، ولكن فلنقف عند شجرة واحدة من هذه الغابة المباركة .. فلنقف عند عالم يُسمَّى « أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي » ، المعروف باسم « ابن لأعرابي » .

وابتداء نجدُ أن نسبة « الأعرابي » لا تعني أنَّه عربي الأصل، فهو كما قيل: عبد سِندِيّ ، ومما يُلقى ضوءاً على هذه القضية قولُ السِّجِستاني فى (غريب القرآن) : « .. أعجمٌ وأعجميٌّ .. اذا كان في لسانِه عُجمة وان كان من العُرب ، ورجل عجمي : منسوب الى العجم وانكان فصيحاً ، ورجل أعرابي : ان كان بدوياً وان لم يكن من العرب ، ورجل عربي منسوب الى العرب وان لم يكن بدوياً » .

من كل هذا نجد أن الرجل على الرغم من أنَّهُ عبد سندي أحول أعرج ـ كما تذكر لنا الكتب التى تعرضت له ـ الا أنه عرف كيف يشق

طريقــه فى هذا المجتمع الاســلامي الذى يحترم العقل ، ويؤكد عليه .

وعلى كل فالرجل بين ميلاده عام ١٥٠هـ وموته عام ٢٣١هـ عرف كيف يشق طريقه لا عن طريق التحدي ، والاحساس بمركب النّقص ، ولــكن لأن المجتمع كان يساعد على التفوق والسطوع ، لقد عرف الوصول الى ينابيع اللغة وأسرارها ، وبخاصة حين رضعها فى بنى أسد ، وبنى عقيل الذين كانوا ينزلون بظاهر الكوفة ، بالاضــافة الى الجلوس لعدد من شيوخ اللغة المؤكّدين مثل : الكِسائي ، والمفضّل الضبيّ ، وأبى معــاوية الضرير .. على أنه لم يمض وقت كبير حتى تألق كنجم كبير فى سماء العربية ، ونحن نستشهد على هذا بكتاب «نُزهةِ الألباب» ، فقــد جاء فيه : « .. كان للناس رؤوس .. كان سفيان رأساً فى الحــديث ، وأبو حنيفــة رأســاً فى القيــاس ، والكِسائي رأساً فى القرآن ، فلم يبق الآن رأس

فى فن من الفنون أكبر من ابن الأعرابي . فانه رأس كلام العرب !

فهو الى جانب كونه من أحفظ الناس وأوثقهم للغات والأيام والأنساب والشعر . وهو الى جانب قيامه بوظيفة التعليم الى الحد الذى يُقال فيه انه كان يُسأل ويُقرأ عليه فيجيب من غير كتاب .. نراه من هؤلاء الروّاد الذين وضعوا الأسس للمعاجم العربية الكبيرة حين اتجه مع علماء عصره الى جمع تلك الألفاظ التى تتعرض لموضوع بعينه ، أو تدل على معنى له خصوصية ، وقد كان من نصيبه الوقوف على أساس خَيل العرب وأنسابها ، وعلى أسماء النبات ، والزّروع ، والأنواء ، والذباب ، والبئر ، وقد كانت هذه البزوغات الذكيةُ هي المفتتحُ الحقيقيُّ للمعاجم التى أُلِّفَت على نَسق الترتيب الهجائي كلسان العرب ، والصحاح ، وتاج العروس ، أو على نظام الترتيب الصوتي كالبارع ، والمحكم ، والتهذيب .

أما مؤلفاته فقد ذكر الباحثون انها كالآتى :

١ ـ أبيات المعاني .
٢ ـ أسماءُ خيل العرب وفرسانِها .
٣ ـ الألفاظ .
٤ ـ الأمالى .
٥ ـ الأنواء .
٦ ـ البئر .
٧ ـ تفسير الأمثال .
٨ ـ تاريخ القبائل .
٩ ـ الخيل .
١٠ـ ديوان العاشقين .
١١ـ جمع ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي
١٢ـ جمع وشرح ديوان أبى محجن الثّقَفي .
١٣ـ جمع شعر أرطأة بن سهية .
١٤ـ الذباب .
١٥ـ صفة الدرع .
١٦ـ صفة الزرع .
١٧ـ صفة النّحل .

١٨ـ الفاضل فى الأدب .
١٩ـ مدح القبائل .
٢٠ـ معاني الشعر .
٢١ـ مُقَطَّعات مراثى لبعض العرب .
٢٢ـ النباتات .
٢٣ـ النَّبتْ والبَقل .
٢٤ـ نسب الخيل .
٢٥ـ النَّوادر .
٢٦ـ نوادر بنى فَقعَس .
٢٧ـ نوادر الزبيريين .

.. وقد ذكر « بروكلمان » أن له كتاباً آخر اسمه (المعجم) .

من كل هذا نرى تنوع ثقافته الخاصة ، وثراء الثقافة فى عصره ، واسهامه الذكي فى العديد من الميادين . لهذا فقد كان يستحق ما قيل عنه من أنه « رأس كلام العرب » وكان جديراً بتقدير المقدمين فى عصره وفى مقدمتهم الخليفة المأمون ، فاذا أردنا التعريف بخصائصه النفسية وجدنا

أنه يجيء فى مقدمتها حُبه للناس وللعلم ، لقد قالوا عنه : انه شيخ جميلُ الأخلاق ، ثم انه أخلص نفسه لثقافة عصره ، وبخاصة الثقافة اللغوية ، وقد تكلَّم فى هذا الزبيدي بسند عن أبي عمران فقال : « .. كُنتُ عند أبى أيوب أحمد بن محمد بن شجاع ــ وقد تخلف فى منزله ــ فبعث غلاماً من غلمانه الى أبى عبدالله بن الأعرابي صاحب الغريب ــ يسأله المجىء اليه ، فعاد اليه الغلام فقال : قد سألته ذلك فقال لى : عندى قوم من الأعراب فاذا قضيتُ أربى معهم أتيتُ ، قال الغلام : وما رأيت عنده أحداً الا أن بين يديه كُتباً ينظر فيها ، فينظر فى هذا مرة ، وفى هذا مرة ، ثم ما شعرنا حتى جاء ، فقال له أبو أيوب: يا أبا عبد الله .. سبحان الله العظيم تخلَّفت عنّا ، وحرمتنا الأُنس بك ، ولقد قال لى الغلام انه ما رأى عندك أحداً . وقد قلت له : أنا مع قوم من الأعراب . فاذا قضيت أربى معهم أتيت ، فقال :

لنا جُلساء ما نَمَلُّ حديثهم
ألبَّاء مأمونون غَيباً ومَشهدا

يفيدوننا من علمهم ـ مثل ما مضى ـ
وعقلا ، وتأديباً ، ورأياً مسدَّدا

بلا فِتنَة تُخشى ، ولا سوءِ عِشرة
ولا نَتَّقى منهم لساناً ولا يدا

فان قلتُ : أموات فما أنا كاذبٍ
وان قلتُ : أحياء فلستُ مفنِّدا

ومع كل هذه الغزارة فى العلم كان يعرف كيف يقف عند حدود ما يعرف فحين قيل له : ما معنى قول الله « الرحمنُ على العرش استوى » قال : هو على عرشه كما أخبر ، فلما قيل له : ان معنى استوى استولى قال لسائله : أسكت ما يدريك فما هذا : العرب لا تقول للرجل استولى على الشيء حتى يكون له فيه مُضاد . فأيهما غلب قيل : استولى عليه ، واللهُ لا مضاد له ، وهو على عرشه كما أخبر ، والاستيلاء بعد المغالبة !

.. صحيح أنه حدثت بينه وبين المثقفين فى عصره عداوات ومنافسات ومخاشنة ، على نحو ما حدث بينه وبين الأصمعي وأبى عبيدة ،وصحيح أنه كان له موقف متشدد من تجديد أبى تمام ، وهو القائل فى شعره : ان كان هذا شعر فكلام العرب باطل .. ولكنه عرف كيف يواصل مسيرته، وكيف يكدح كدحاً شديداً ليقدم لنا هذا التراث المتنوع الخصب .

■□■

.. اننا بهذا الضوء السريع نؤكد على أن الاسلام يفجّر فى الانسان كل الطاقات ، ويزيل من أمامه السدود ، ويجعله يتفوّق على ضعفه وعلى هوانه وعلى عاهاته ، ويجعله يعبُر بسهولة سدود الجنس ، والطبقة ، واللون ، واللياقة البدنية . فالثقافة الحقيقية ليست حلية أو شارة، وانما هي معاناة لا تنقطع ، وكدح لا يتوقف ، وورق لا يذبل وهي قبل كل شيء نابعة من المجتمع الذى يعيش فيه المثقف . وقابلة فى الوقت

نفسه لهذا الاكتشاف القديم الجديد الذى أكده العلامة « أبو الحسن محمد بن يوسف العامري » والذى يقول لا بد من دراسة المجتمع من أجل تطويره الى ما هو أفضل وبالتعرف على هذه القمم الكبيرة فى حضارتنا نكون قادرين على التماسك ، وعلى الابداع ، وبدون ذلك لن يكون غيرُ العدم .. وغيرُ الهوان .

■ □ ■

٥ - علي بن الجَهْم

يعتبر الشـــاعر « علي بن الجهم » من الشعراء الذين يُشَمُّ في شعرهم عبيرُ القرآن ، وهـــذا الشذى الرقيق للسُّنة ، وأكاد أقول ان القارئ يرى من خلال شعره أحياناً « الجنة » .

ونحن اذا تركنا هذا الخــلاف الكبير الذى دار حول كونه من قريش ، أو من غير قريش ؟ وهل وُلِد فى مرو أو بغـداد ؟ واذا نحينا كثـيراً من التفاصيل حول حياة هذا الشاعر ، فاننا سنصل سريعاً وبحسم الى أنَّه وُلِد عام ١٨٨هـ ، وأن أجداده فى الأصل كانوا يسكنون مكة ، ثم ذهب واحد منهم الى البحرين،وفى البحرين يبـدو أن والده عانى كثيراً من تكاليف الحيـــاة ، فقد قيل انه كان يرهن خاتمـــه « على شيء من الطعـــام » .. المهـم أن الأسرة انتقـلت الى بغـداد ، وأن

الحياة هناك أقبلت عليهم كأروع ما يكون الاقبال. من خلال هذا رأينا « علي بن الجَهم » يذهب لتلقى تعليمه فى واحد من هذه الكتاتيب التى كان يذهب اليها طلاب العلم فى هذا الزمان ، ويُروى أن ولعَه بالشِّعر كان مبكراً ، فقد قيل انه وهو فى المرحلة المبكرة من السن ، وفى أحد الكتاتيب الذى نعرف من وصفه أن التعليم به كان مختلطاً بين البنين والبنات ، وقد أخذ لوحاً ثم كتب عليه هذا البيت :

ماذا تقولين فيمن شفَّه سهر
من جُهد حُبِّكِ حتى صار حيرانا

فما كان من الفتاة التى يميل اليها الا أن أخذت اللَّوح ثم كتبت عليه هذا البيت الذى يقول :

اذا رأينا مُحِباً قد أضرَّ به
جهدُ الصَّبابة أوليناهُ احسانا

ولقد كان هذا من البزوغات التى جعلته بعد

ذلك واحداً من النجوم الكبيرة التى زيَّنت العَصر مثل أبى تمام والبحتري ، وأحمد بن أبى فَنَن ، ولما كان الشاعر فى هذه الفترة لا يَسطعَ الا اذا ربط نفسه بقصر الخلافة فانا نعرف أن «المأمون» قد سمع به ، ولكن لم يتم بينهما لقاء ، وحين ولي «المعتصم» الخلافة رأى أن يمدحه بقصيدة أولها :

وُلِيتَ فلم تدع للدين ثارا

سيوفك ، والمثقفةُ الدّوامى

ولكنه لم يستطع أن يلمع فى أفقِ المعتصم ، ذلك لأن هذا الخليفَة كان كالمأمون يقرّب المعتزلة ، ويرى رأيهم ، أما الشاعر فقد اختار لنفسه نَهجاً لم يحد عنه ، هو نَهج أهل السُّنة ، الى حد أن أحد ألقابه كان «شاعر أهل السُّنة» ، وحين آلت الخلافة الى « الواثق » نراهُ يقترب منه بحذر ، ويمدحه بشعر ممتلىء بالفتور ، ثم ينسحب تماماً من دائرة الضوء التى كانت حول الواثق ، ذلك لأن الواثق ـ كما قيل ـ كان من أشد القائلين بخلق القرآن ، وكان من أجل هذا

« يدعو ليلا ونهاراً سراً وجهارا » ، ثم كان أن تغيَّر الأمر حين آلت الأمور الى « المتوكل » فهو ابتداء قد رأى الناس تنصرف عن هذه الدعوى التي يرفع من أجلها السَّيفَ على الرقاب ، وسواء أكان المتوكل ذكياً الى الحد الذي حين رأى مشاعر النـاس تنصرفه عن الخـلافة رأى أن يعيد اليهم ما يحبون أو أن هذا كان ايماناً صادقاً منه بما يراه أهل السُّنة في مواجهـة المعـتزلة .. فان التـاريخ يذكر لنا أنه رفع محنة القول « بخلق القرآن» عن الناس ، وأحاط نفسه بأهل السُّنة، ويمكن التَّعرف على هذا من قول السـيوطي في تاريـخ الخلفـاء : « .. اسـتقدم المحـدثين الى سامرّاء ، وأجزل عطاياهم ، وأكرم وفادتَهم ، وأمرهم أن يحدِّثوا بأحاديث الصفات والرؤية ، وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في جامع الرصَّافة ، فاجتمع اليه نحو من ثلاثين ألف نفس ، وجلس أخـوه في جامع المنصـور . فاجتمع اليه نحو من ثلاثين ألف رجـل أيضـاً . وتـوفَّر دُعاء الخلق

للمتوكل ، وبالغوا فى الثناء عليه ، والتعظيم له حتى قيل : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق فى محاربة أهل الرّدة وردّهم الى الاسلام ، وعمر ابن عبد العزيز فى ردّ مظالم بنى أميّة الى الناس ، والمتوكل فى ردّه الناس الى السُّنة !!» .

فى هذا المناخ الذى آلت فيه الأمور الى أهل السُّنة ، والذى أصبح رايته الحقيقية « أحمد ابن حنبل » الذى كان يُستشارُ فى الكثير من الأمور ، رأينا « علي بن الجَهم » يزدهر شعره ، ويقف بسعادة الى جانب هذا النظام الأثير عنده ، واذا كان علي بن الجهم الى جانب ميله الى أهل السُّنة كان يقف الى جانب العَباسيين ضدّ العلويين . فان هذا قد لفت اليه الخليفة المتوكل فقد كان المتوكل يبالغ فى كره العلويين الى حدّ أنّه أمر بهدم قبر الحسين ، وبأن يُبذر مكان القبر ، ويُسقى !! وبأن من يوجد فى هذا المكان يوضع بلا رحمة فى السجن . وقد وصل أمر هذه الكراهية الكريهة الى حدّ أن أحد ندمائه . كان

يقلّد بين يدَيه الامام علي بن أبى طالب وهو يشربُ ويضحكُ . فما كان من ابنه المنتصر فى احدى المرات الا أن غضبلهذا وقال : « .. يا أمير المؤمنين . ان الذى يحكيه هذا الـكلب و يضحك منه الناس ، هو ابن عَمّك . وشيخُ أهل بيتك ، و به فخرك ، فكل أنت لحمه اذا شئت . ولا تُطعم هذا الكلب وأمثاله منه ! » .

■□■

على كل لقد كان المتوكل حُلماً من أحلام علي بن الجهم ، وكان أن هرولاليه مادحاً . وما أكثر ما ظهر فى هذه الفترة اقتباسُه فى شعره من القرآن الكريم ، الى حد أنه حين وصف المنجنيق الذى استُعمل فى فتح أرمينية استوحى سورة الفيل .. وهكذا يكون هذا الشاعر فى هذا الوقت المبكر قد اهتدى الى هذا العالم الرائع الذى يمكن استغلاله فى القرآن ، لا بدافع الافتعال أو التّظاهر ، ولكن بدافع الايمان الصادق ، لقد كان الأمر من قبل يكاد يقتصر على اقتباس لفظ

أو بعض معنى ، ولكنه تجاوز هذا الى آفاق عليا !

ولما كان المتوكل قد أنس به ، وقربه تقريباً شديداً ، فان هذا قد أوغر الصدور عليه ، بحيث رأى نفسه فى آخر الأمر فى السجن ، وفى السجن تسمع منه هذه القصيدة الجميلة فى الشعر العربي ، التى يقول فيها :

قالوا : حُبِستَ ، فقلت : ليسَ بضائرى
حَبسى ، وأي مهنَّد لا يُغمد ؟

أو ما رأيت الليث يألف غيله
كبراً ، وأوباشُ السِّباع تردَّد

والشمس لولا أنها محجوبة
عن ناظريك .. لما آضاء الفرقد !

ولما كان من سجنه قد هجا « آل طاهر » الذين كانوا قريبين من المتوكل ، فاننا نراهم يعملون على قتله نفسياً قبل قتله مادياً ، ذلك بأنَّهم أمروا بأن يخرج من سجنه عرياناً ، ثم يسير الى

باب يُسمَّى باب « الشاذياخ » ، وهناك رُفع على صليب طيلة نهار ، وبعضاً من ليل ، وعلى هذا الصليب بدأ يقول قصيدته الباكية التى أولها :

لم يصلبو بالشاذياخ صبيحة الا
ثنين مفموراً ، ولا مجهولا

نصبوا بحمد الله ملء عيونهم
شرفاً ، وملء صدورهم تبجيلا

ما عابه أن بُزَّ عنه لباسه
فالسيف أهول ما يُرى مسلولا

.. هل تملكون لدينه ، ويقينه
وجنانه ، وبيانه تبديلا ؟

ولتعلمنَّ اذا القلوب تكشَّفت
عنها الأكنَّة من أضل سبيلا ؟

وحين وصل أمر هذه الأبيات التى أنشدها عارياً على الصليب طاهر بن عبد الله عفا عنه ..

ومع أنه نجا من الموت ، الا أن حياته قد دمرت تماماً بعد هذا الحادث ، فقد كان يهرب من الناس ، ويجد عزاءه فى التردّد على القبور ، ويردد :

يشتاق كلّ غريب عند غربته
ويذكر الأهل ، والجيران ، والوطنا

وليس لى وطن أمسيت أذكره
الا المقابر اذ صارت لهم وطنا !

ثم نراه يغادر خراسان الى بغداد ، وحين وجد الناس لا يقبلون عليه كما كان أمره فى الماضى ، نراه يقدم على ما لا يليق به ، بعد أن كان يوصف بأنه من « كملة الرجال ! » .. ولكنه أفاق على اغتيال المتوكل ، وعلى الأتراك يمدون ظلا ثقيلا على الحياة ، وعلى ثغور المسلمين يُعتدى عليها من الروم ، واذا به يفيق الى نفسه ، ويخرج بنفسه لحرب الروم ، وألهب الناس الى حد أن الأغنياء قدّموا الأموال ،

والفقراء قدّموا الأرواح ، أما الخليفة فكما يقول الطبري : « لم يجهز عسكراً ولم يبعث جيشاً » ، وكان أن سار الناس لحماية الثغور وفى مقدمتهم علي بن الجهم على الرغم من أنه كان قد تجاوز الستين عاماً ، ولكن موته كان حزيناً ذلك لأن قتله كان على أيدى جماعة من الأعراب خرجت لتنهب بعض الفرق المسافرة لحماية الثغور ، وقد سُمع والدماء تنزف منه بغزارة يقول :

أزيد فى الليل ليلُ
أم سال بالصبح سَيلُ

ذكرتُ أهل دُجَيل !
وأين منى دجيل ؟

وحين نزعت عنه ثيابه وجدت رقعة فيها هذان البيتان :

يا رحمتا للغريب فى البلد النا
زح ماذا بنفسه صنَعا

فارق أصـحابه فمـا انتفعـوا

بالعيش من بعـده ولا انتفعا !

.. ومات رجل شغل عصره .. وشغل التاريخ وفجَّر عذوبة اللغة !

■ □ ■

٦ – حمزة الأصفهاني

هناك ظاهرة لا يخطئها المتتبع لجغرافية الحضارة الاسلامية ، وهي أن الاسلام حرّك السكون الذى كان يغطى العديد من المناطق ، فاذا كانت بعض هذه المناطق متألقة بالفعل ، فانه يزيدها ألقاً على ألق .. ومعنى هذا أنه حضارة متكاملة ، وأنه يتسرّب الى الأصول ، ثم يحرك كل شيء ابتداء من هذه الأصول ، ولعل علماءنا الأقدمين كانوا على حق ، حينما كانوا يقولون دائماً « انما الأمور بأصولها » .

.. وعلى كل فنحن فى محاولة تعرفنا على « أبو عبد الله حمزة بن الحسن الأصفهاني » نصل الى أنه وُلِدَ حوالى عام ٢٨٠ هـ ـ ٨٩٣م ، وتوفي حوالى ٣٦٠هـ ـ ٩٧٠م ولقد وُلِدَ فى اقليم اصبهان ، ومن المعروف أن هذا الاقليم قد

تفجّر بالمعرفة تفجراً لم يعرفه من قبل الاسلام ، وقد ظل رافداً عقلياً متتابعاً للثقافة الاسلامية منذ أن فتح فى عهد عمر بن الخطاب ، وحقاً لقد كان ياقوت ثاقب النظرة وهو يقول : « .. وقد خرج من اصبهان من العلماء والأئمة فى كل فن مالم يخرج من مدينة من المدن ، وعلى وجه الخصوص علوّ الاسناد ، فان أعمار أهلها تطول. ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث ، وبها من الحفاظ خلق لا يحصون » .

ولقد عاش حمزة حياة بسيطة فى هذا الاقليم، واستطاع أن يستوعب فيه تلك التيارات المتوهجة التى فجرها الاسلام ، ولكنه لم يكتف بهذه التيارات هناك ، ذلك لأنا رأيناه يتنقل فى عدد من مراكز الثقافة الاسلامية ، ثم استقر به الحال فى بغداد ، وبخاصة أنها استطاعت فى هذه الفترة أن تسرق الضوء من الكوفة والبصرة ، وقد استطاع فى هذه الفترة أن يصنف لعضد الدولة بن أيوب كتاب « الخصائص والموازنة

بين العربية والفارسية » ، وقد عرف فى الفترة المبكرة من حياته أن يجلس الى عدد من الشيوخ الكبار فى العديد من العلوم على نحو ما نعرف من تتلمذه على الطبري ، والجواليقي ، والواسطي ، وابن دريد ، والأنباري ، والعكبري ، والأخفش الصغير ، بل انه كان يدرك أن المعرفة ضالّة المؤمن ، وأن عليه أن يسعى سعياً شاقاً من أجل أن يُثَقِّف عقله ، ويرهف وجدانه ، ولذلك نعرف من كتاباته أنه أخذ عن كثير من العلماء ، فمن أقواله المبكرة : «.. وأخذتُ عن فلان وكان يقرأ ويكتب الرومية » ومن أقواله كذلك : « وأخذت عن فلان وكان لا ينطق الرومية الا بجهد » .

وقد ساعده هذا على أن يقدم لنا عديداً من الكتب الهامة مثل : تاريخ أصبهان. والتشبيهات، والتَّنبيه على حدوث التَّصحيف ، والأمثال الصادرة عن بيوت الشعر ، والتماثيل فى تباشير السرور ، ومضاحك الشعراء ، والدرة

الفاخرة فى الأمثال .. كما أن له وقفة عند ديوان أبى نواس .. وقد تنبّه له من وقت مبكر عدد من المستشرقين نذكر منهم « أوجين منفوخ » الذى أصدر كتاباً بعنوان (مؤلفات حمزة الأصفهاني » كما نشر «جوتوالد» كتاب (تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء) . وقد أعيد طبعه باسم (تاريخ ملوك الأرض) ، وقد تنبّه له من قبل ذلك علماء العربية . فقد قال عنه ابن النديم: كان أديباً مصنفاً ، كما جاء عنه فى (أنباه الرّواة على أنباه النّحاة) للقفطي : « .. الفاضل الكامل المصنف المطلع الكثير الروايات ، كان عالماً فى كل فن وصنف فى ذلك ، وتصانيفه فى الأدب جميلة، وفوائده حجة ، وله كتاب الموازنة بين العربي والعجمي ، وهو كتاب جليل دلّ على اطلاعه على اللغة وأصولها ، ولم يأت أحد بمثله » .

■□■

ويبدو أن « حمزة الأصفهاني » بحيويته وذكائه ووهجه الكثير ، قد شغل عصره ، وما تلاه من العصور الى حدّ أن هناك من ينسبه الى

الشعوبية بينما ينفيها الآخـــرون . ودليل الذين نسبوه الى الشعوبية أنه أشـــاد بالفرس كقوله :
« .. ولما رأيتُ الأيوان. رأيتُ فى جانب منه قبة صغيرة محكمة العمارة يعرفهـــا أهل الناحية فعجبتُ من قوم كان هذا مذهبهم فى العدل والرفق بالرّعيـــة ، كيف ذهبت دولتهم لولا النبـــوة التى شرّفهـــا الله بعبـــاده وشرّف بهـــا عباده » وهم يقولون انه كان له رأي فى اللغة العربية يقول :
« .. وأما سبب وقوع التّصحيف فى كتابة العرب فهو أن الذى أبدع صور حروفها لم يضعها على حكمـــة ، ولا احتاط لمن يجىء بعده ، ذلك أنه وضع لخمسة أحرف صورة واحـــدة هي البـــاء ، والتاء ، والثاء ، والياء ، والنـــون وكان وجـــه الحـــكمة فيه أن يضع لـــكل حرف صورة مباينة للأخـــرى حتى يؤمن عليه التبـــديل » ثم يقول :
« .. فقـــد بان لمن عقـــل وأنصف نفســـه ، أن اعتراض التّصحيف فى هـــذه الـــكتابة والأعجام ليس الا من ضعف الأعجام ! » .

والحقيقة التي يؤكدها تراث الرجل ، ويؤكدها تاريخُه في الوقت نفسه ، أن الرجل كان يحب العروبة ، وكان ثمرة من ثمرات الاسلام ، ولكنه فيما يتصل ببعض قضايا الفكر كان جسوراً وخشناً على عادة كثير من المفكرين الكبار ، ومن هذه الحرية والجسارة نفذ اليه حاسدوه ، والذين عجزوا عن ملاحقته في الميادين الكثيرة التي كان يضرب فيها باقتدار ، ويكفي للتعرف على منهجه العلمي الذى يقرّه الاسلام أن نقف عند قوله : « وأنا أجيبك عمَّا سألت عنه ، سالكاً فيه طريق الانصاف ، وتاركاً سبيل العناء ، متملِّصاً من ركوب العصبية ، والركون الى العناء واللجاج وحمية الجاهلية ، ان شاء الله .. » وانطلاقاً من هذا المنهج الواضح في التفكير نراه ينصفُ العرب الذين اتهم بمعاداتهم ، والتقليل من شأنهم . وذلك حين وجد الناس ينسبون اليهم فاحشة التشبيب بالمذكر ، فنحن نراه يبعد هذا ابتداء عن العرب ، ويثبتها للخراسانيين . معللا

هـذا بذهابهم للحـروب مع غلمانهم ، والبعـد الطويل عن النساء !

.. وقـد تنبـه الى هذه القضية وفصل فيهـا بروكلمان حين قال : « .. كان حمزة الأصفهاني فارسياً يفخر بنسبه الأعجمي ، بل برغم ذلك لم يعاد العرب ، بل أنصفهم ، وأعلى ذكرهم ، فلا يجـوزُ أن يُعَدَّ من الشـعوبية ، كمـا فعـل جولدزيهر فى كتابه عن الدراسـات الاسلامية » كما تنبـه لهـذا من بعد الدكتـور عبد المجيـد قطامش حين حقق كتابه المسمَّى «الدرّة الفاخرة فى الأمثـال » وذهب الى أنه كان وراء ذلك كثرة الذين أخملهم من رجال عصره ، ثم أن القِـفطي يقـول عنه : « .. ولـكثرة تصانيفه ، وخوضه فى كل نوع من أنواع العِلم سمَّاه جهلةُ أصبهان بائعَ الهذيان ، وما الأمر ــ والله ــ كما قالوا !»

■□■

.. من كل هـــذا نرى ضرورة التعــرف على تراثنا ورجالنا ، وأن نتحرى ما يقوله منافسوهم عنهم ، فالتـــاريخ يؤكد أن حمزة الأصفهاني لم يكن « بائع هذيان » ولكن « بائع عرفان »

■ □ ■

٧ ـ ابن جِنّيّ

ظاهرة عامة لا يكاد يخطئها الانسان ، وهو يتجوّل فى التاريخ الاسلامي . هذه الظاهرة هي أن الحضارة الاسلامية تسمح بتفجير الطاقة الانسانية بلا حدود . فهي تحرض الانسان على الازدياد من المعرفة ، وعلى التّعمق فى الكون من حوله ، ولا ننسى أن تدفعه دفعاً الى معرفة هذا العلم الرائع .. عالم النّفس . وبهذا يتحوّل الانسان الى مكتشف فى عالم قابل للاكتشاف أبداً .

.. صحيح ان اللغة العربية كانت اللغة الرسمية للحضارة الاسلامية ، ولكنها لم تقف « حجر عثرة » أمام الجماعات والأمم التى عرفت طريقها الى الاسلام ، ونظرة سريعة الى الذين خدموا اللغة خدمات جليلة من غير العرب ،

توضح أن المناخ الاسلامي كان مناخاً صالحاً لكل الناس . ولقد كان من هؤلاء الذين أفادوا من هذا المناخ « عثمان بن جِنّي أبو الفتح النحوي » .

ولقد تنبه المتقدمون الى فضله حين جعلوه من أحذق أهل الأدب، وأعلمِهم بالنَّحو والتصريف، فقد صنف ـ كما قيل ـ كتباً « أَبَرَّ » زاد وفاق ـ بها على المتقدمين، وأعجز المتأخرين . ولم يكن في شيء من علومه أكثر منه في التَّصريف . ولم يتكلَّم أحد في التَّصريف أدق كلاماً منه » . ولقد كان من العمق والذكاء والاحاطة بحيث جعل البعض ـ كياقوت ـ لا يصادرْ به على المتقدمين فقط ولكن على المتأخرين كذلك .

أما المتأخرون ـ كالدكتور حنفي بن عيسى ـ فقد ذكروا أنه أدرك وحدة الاحساس والادراك حين قال : ان طريق الحسّ موضع تتلاقى فيه طباع البشر ويتحاكم اليه الأسود والأحمر ، وأكد على أن الألفاظ العربية نشأت عن حكاية الأصوات الطبيعية ، وأن الحرف فيها له قيمة

تعبيرية وبيانية . ومن ذلك أن الغين تدل على الاستتار والخفاء مثل : غاب . غار . غاض غام . غمد . غمر . غمط . غرب . غرس . غرق .. ولنتأمل قوله : « فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع . وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سَمت الأحداث المعبر بها عنها . فيعدلونها ويحتذونها عليها . وذلك أكثر مما نقدّره . وأضعاف مما نستشعره . من ذلك قولهم خَضِم وقضَم . فالخضم لأكل الرُّطب ـ كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرّطب ـ والقَضم للصُّلب اليابس . فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب . والقاف لصلابتها لليابس . حذوا لمسموع الأصوات . على محسوس الأحداث وهو ممن قال بالاقتصاد فى اللغة . فبدلا من أن يتعامل الناس بالأشياء بعينها . يكتفون بذكر أسمائها بدون زيادة أو نقصان. وقد ربط بين الكلام والسلوك الحركي . ولنتأمل قوله

« ألا ترى أن الابتداء لما كان أخذاً فى القول . لم يكن الحرف المبدوء به الا متحركاً . ولما كان الانتهاء أخذاً فى السكوت لم يكن الحرف الموقوف عليه الا ساكناً . وعلى كل فاذا أردنا وضع العربية فى اطار « نظرية » فان هذا لن يكون الا من خلال نظريته التكاملية . بمعنى أن قضايا اللغة لا تُفهم على حقيقتها الا اذا تكامل فيها البحث من كل الجوانب . فى ضوء مقولته عن كتابه الخصائص : « هذا كتاب يتساهم ذوو النَّظر من المتكلمين والفقهاء والمتفلسفين والنُحاة والكُتاب والمتأدبين . التأمل له . والبحث عن مستودعه . » .. وعلى كل فقد أتى بآراء باقية حين بدأ مباحثه بمقدمة صحيحة تقول بالاصطلاح والتواضع فى أصل اللغة . لا بالتوقيف والوحي كما قال الكثيرون كابن فارس اعتماداً على قوله تعالى « وعلَّمَ آدمَ الأسماء كلها » أما ابن جِنِّي فقد ذهب الى أن « علَّم » بمعنى « أقدر » فالقدرة

من عند الله . ولكن الوضع والاصطلاح من عمل الانسان .

■□■

وعلى كل فحين نحاول التعرّف عليه . نجد أن أباه كان مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي ، ونعرف أن هذا النسب الرومي ربما كان يؤرّقه حيناً على حدّ معرفتنا من قوله :

فان أُصبح بلا نَسب
فعِلمى فى الورى نَسَبى
على أَنى أؤول الى
قروم سادة نُجُب
أولاك دعا النبي لهم
كفى شرفاً دعاء نبي !

ونعرف أنه وُلِد على أصح الآراء فى عام ٣٠٠هـ ومات عام ٣٩٢هـ (٩١٢ـ١٠٠٢م) وقد كان من عادته فى حديثه أن يميل بشفتيه ويشير بيده . ويبدو أنه كان رحب النفس ، غير مسارع

الى الغضب ، على نحو ما نعرف من تلك القصة الطويلة التى تذكر فيما تذكر أن « أبا الحسن القُميِّ » كان يعجب من ميله بشفتيه ، واشارته بيده ، وحين قال له ابن جِنِّي : ما بالُك يا أبا الحسين تُحدِّق اليَّ النظر ، وتكثِرُ مني التَّعجُب ! ، قال : شيء ظريف . قال : ما هو ؟. قال : شبهت مولاي الشيخ وهو يتحدث ويقول ببوزه (بفمه) كذا أو يبيِّن كذا بقرد رأيتُه اليوم عند صعودى الى دار المملكة ، وهو على شاطىء دجلة يفعل مثل ما يفعل الشيخ ، فمع أن الرواية تؤكد امتعاض الناس مما قيل ، الا أنه كان يبتسم فى وجه قائله !

ولعل من أرقّ ما قيل فيه ، وما يؤكد أنه لم يكن هَيِّناً على الناس ، هذا القولُ الذى يقول : كان أبو الفتح بن جِنِّي ممتَّعاً باحدى عينيه ، فقد انصرفوا عن القول بأنه أعور ، وهو نفسه يقول :

صدودك عنى ولا ذنب لى
دليـــل عـــلى نِيـــَّـة فاسِـده

فقد وحيـــاتك ممـــا بكيت
خشيتُ على عيني الواحده

ولولا مخـــــافةُ ألا أراك
لمـــا كان فى تركها فائده !

ونحن نعرف أنه كان مربياً حسَن التربية ، وقد كان فى مقدمة الذين ربَّاهم أولاده : علي ، وعال ، وعلاء (يلاحظ هنا تكرار حرف العين) فلقد كانوا ــ كما قيـــل ــ أدباء فضـــلاء ، قـــد خـــرّجهم والدهـــم . وحسَّن خطـــوطهم ، فهم معـــدودون فى الصـــحيحي الضَّبط ، وحَسَني الخط .

■□■

وعلاقته مع الشاعر المتنبي تُلقى الضوء على شخصيته . فقد كان يجلسُ مع المتنبي ويناظره فى النَّحو وغير النَّحو من غير أن يقرأ عليه ديوان

شعره «اكباراً لنفسه من ذلك» وقد أدرك المتنبي هذا ، وكان مما قال فيه : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس! » وقد وصل الأمر الى حد أن المتنبي حين سُئل بشيراز عن قوله :

وكان ابنـــا عَدو كاثراه

لــه ياءى حــروف أُنَيسنان

قال : لــو كان صــديقُنا أبو الفتــح حاضراً لفسَّره ، وهذا يشير الى أن مفاتيح الشعر ليست فى يد الشــاعر بقدر ما هي فى يد النّاقد ، وقــد أفاد بلا شــك من تردّده على بلاط سيف الدولة فى حلب ، ومن ولايته منصب كاتب الانشــاء فى بلاط عضد الدولة ، ومن خَلَفه بعد ذلك .

.. ولقد كان يحسن هذا الجدل الذكيّ فى علوم اللغة ، سواء كان يتحدث فى هذا الشأن مع العلماء أو الأعراب، كما كان على صلة بالحساسية الجديدة التى وجدت فى عصره ، فحين أصدر كتاباً بعنوان « التصريف الملوكي » قيــل : ان النَّسبَ يكون

للمفرد ، ولـكنه قال : ان النـاس تسير على غير هذا ، كما أنه كان يشارك فى حياة الناس ويخطب فى زواجهم ، أما دوره فى اللغة فقد أكثر من آراء لا تزال تتجـول حتى الآن فى عصرنا ، ولعـله يجىء فى مقدمتها نظرية الاسناد التى انتفع بهـا فى هذا العصر العلامة « ابراهيم مصطفى » كما نعرف من كتابه «احياء النّحو» ، ولنتأمل ما قاله عنه أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي فى كتابه « دمية القصر » فهو يقول : « .. ليس لأحد من أئمـة الأدب ، وفتح القفلات ، وشرح المشـكلات ما له ، فقد وقع عليهـا من ثمرات الاعـراب . ولا سيما فى علم الاعراب ، ومن تأمل مصنفاته وقف على بعض صفاته ، فوربى انه كشف الغطاء عن شعره ، وما كنتُ أعلم أنه ينظِـمُ القريض . أو يسيغ ذلك الجريض ، حتى قرأت له مرثيـة فى المتنبي أولها :

غاض القريضُ ، وأذوت نُضرةُ الأدب

وصوَّحَت بَعد ري دَوحةُ الكُتُبِ !

وفى الواقع ان المتأمل فى شعره ، يجدُ نوعاً من الرّقة والاحساس الذكيّ ، بحيث لو ظهر فى غير عصر صديقه المتنبي لأشير اليه ، ولكنّ المتنبي جذب الناس الى مداره الرهيب ، وأخفى كل ضوء سواه .

ومهما يكن من شيء فقد أضاف الى العربية العديد من الكتب ، وكلها تحتوى على الجهد الشخصي ، وعلى النظرة الذكية ، وعلى التفهم العميق لأسرار التركيب العربي ، وهو نفسه يقدم نفسه الى قارئه فى قوله بلغة تكاد تكون حديثة الى ناشره ، على حدّ ما نعرف من تلك الاجازة التى جاء فيها : « .. وقد أجزت للشيخ أبى عبد الله الحسين ـ أدام اللهُ عزّه ـ أن يروى عن مصنفاتى وكتبى مما صحّحَهُ وضبطَهُ عليه أبو أحمد عبد السلام بن الحسين البصري ـ أيد الله عزه ـ عنده منها كتابى الموسوم بالخصائص ـ وحجمه ألف ورقة ـ وكتابى التمام فى تفسير أشعار هُذَيل ـ وحجمه خمسمائة

ورقة بل يزيد على ذلك ـ وكتابى سِر الصناعة ـ وهو ستمائة ورقة ـ وكتابى فى تفسير تصريف أبى عثمان بكر محمد بن بقية المازني ـ وحجمه خمسمائة ورقة ـ وكتابى فى شرح مستغلق أبيات الحماسة واشتقاق أسماء شعرائها ـ ومقداره خمسمائة ورقة ـ وكتابى فى شرح المقصور والممدود عن يعقوب بن اسحق السكيت ـ وحجمه أربعمائة ورقة ـ وكتابى فى تعاقب العربية ـ وأطرف به ـ وحجمه مائتا ورقة ، وكتابى فى تفسير ديوان المتنبي الكبير ـ وهو ألف ورقة ونيف ـ وكتابى فى تفسير معانى هذا الديوان ـ وحجمه مائة ورقة وخمسون ورقة ـ وكتابى اللُّمَع فى العربية ـ وان كان لطيفاً ـ وكذلك كتابى مختصر التصريف على اجماعه ، وكتابى مُختصر العروض والقوافي ، وكتاب الألفاظ المهموزة ، وكتابى فى اسم المفعول المعتل العين من الثلاثي على اعرابه فى معناه وهو المقتضب ... الخ »

.. وهو يسوق عديداً من الكتب فى اطار علوم اللغة العربية ، ومن خلالهـا نصل الى « لمسة التفرد » ، والى النظرة الرحبة التى تتوافق مع الاحساس الذكي بحركة الحضارة ، والى الجهر بالحق ، حتى ولو كان علماء عصره يأخذون رأياً مخالفاً ، فقد كان يبحث عن الحقيقة بعقل ذكي ، داخل حضارة ذكية ، ومن هنا يجب علينا أن نطيل الوقوف عند هذه القمم ، بدلا من الطواف السريع بها ، أو السخرية من اسمها ، أو من عاهة جسدية تحولت بعد فترة الى نوع من الكمال ، فقد كان الناس لا يبصرون منه الا الكمال الأكمل ، والا الرائع الأروع ..

■ □ ■

٨ – ابن حزم

تحدد الفترات الزمنية الحيَّة نوعية ما يكتب الانسان ، فالكاتب الذى لا يعرف كيف يوجه رسالة خاصة الى عصره ـ وأن على العصر أن يفضّ هذه الرسالة ـ سيظلّ دائماً محدود القيمة ، ضعيف التأثير .

ونحن حين نتعرف على « أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم » يظهر لنا واضحاً ان المشكلات فى عصره حددت أنساق تفكيره ، وجعلت لهذا التفكير خصوصية ، وألقاً ، وتفرداً ، يمكن أن يبقيه حياً فى كل العصور .. لقد وُلِدَ فى الأندلس ٣٨٤ـ٤٥٠هـ ـ ٩٩٤ـ١٠٦٣م فى بيت مشهور بالعلم والثراء ، فقد كان أبوه وزيراً للحاجب المنصور بن أبى عامر ، ولابنه المظفّر ، بل ان في حياته ظاهرة فريدة عبَّر عنها بقوله :

« .. ولقد شاهدتُ النساء ، وعلمتُ من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري ، لأني رُبِّيتُ في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالستُ الرجال الا وأنا في حدّ الشباب .. وهنَّ علّمنني القرآن ، وروينني كثيراً من الأشعار ، ودربنني على الخط» ثم سارت به الحياةُ رخية على حدّ قوله للامام الباجي بعد مناظرة كانت بينهما .

قال له الامام الباجي : أنا أعظم منك هِمَّة في طلب العلم ، لأنَّك طلبته وأنت معان" عليه، فتسهر بمشكاة الذهب ، وطلبتُه وأنا أسهر بقنديل بائت السوق ، فقال له ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك انما طلبتَ العلم وأنت في هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالي !

وعلى كل فقد برع في الجدل ، الى حدّ قوله عن نفسه بأنه «جدلي جوّال» ، والى حدّ قول الناس عنه : بأن لسانه وسيف الحجّاج شقيقان ، على أن ما يحفظ له ، أنَّه لم ينحصر داخل طبقة أو

صفوة ، ذلك لأنه طلب المعرفة حتى من الجُهَّال ، وعلى حــد قوله : « .. انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة ، وهي أنه توقد طبعى ، واحتدام مشاعرى ، وحبى فكرى ، وتهييج نشاطى ، فكان ذلك ســبباً الى تواليف عظيمــة النَّفــع ، ولولا استثارتهم ساكنى، واقتداحهم كامنى، ما انبعثت لتلك التواليف .

■□■

ولقد وجد نفسه سابحاً فى تيــارات الســياسة العنيفــة حين دافع عن أسرته بدفاعه عن الأسرة الأموية الحــاكمة ، وحــين اضطر للخــروج من قرطبة ، ثم حين سُجن ، ونفي .. ثم كانت عودة بعد هذا كله الى قرطبة حــين تولى عبد الرحمن المستظهر الخلافة ، وتوليه الوزارة له ، ثم كانت عودة للسجن تبعتهــا عودة للوزارة ، ولم يكــن يفــاجأ بهذا كله ، ذلك لأنه كان يدرك حقيقــة عصره ، وكان يريد أن يكون شاهداً عليه ، ومن ثم نراه يقول : « .. اللهــمَّ انا نشــكو اليــك

تَشَاغُل أهل الممالك من أهل ملّتنا بدنياهم عن اقامة دينهم ، وبعمارة قصور يتركونها عمَّا قريب عن عمارة شريعته اللازمة لهم فى معادهم» وفى الحقيقة لقد كان ملوك الطوائف مثالا للغفلة، وللانصراف عن الاسلام ، ولقد كان مما أحزنه حقاً أن اسماعيل بن نغراله اليهودي ألّف رسالة طعن فيها فى آيات القرآن ، ولقد كان وزيراً فى الوقت نفسه لأمير غرناطة «باديس بن حبوس» ، ولمّا رأى الغفلة من حوله لم يملك الا الرد عليه موضوعياً بكتابه المشهور المسمَّى « الرد على ابن نغراله » ، وبصفة عامة فقد صور حال هؤلاء الملوك وكيف أباحوا ـ على حدّ قوله ـ لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ، ومسلّطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الاسلام ! وهو نفسه يقول : « لا أعلم ـ لا أنا ولا غيرى ـ بالأندلس درهماً حلالا ، ولا ديناراً طيباً يُقطع

على أنه حــلال ! » ومن صراخه فى هــذا المنــاخ البائس ، وفى آذان ملوك الطوائف ، نعرف تلك النهاية التىكانت تلوح له بالنسبة لهؤلاء الملوك، وقــد حدث بالفعــل أن وقعــوا فى قبضــة ملك قشتاله !

■□■

وقــد اتسمت مواقفــه كلها بالصلابة ، ومما يوضح هذا قوله : « .. ان لم يكن بد من اغضاب الناس ، أو اغضاب الله عز وجل ، ولم يكن ثلك مندوحة عن منــافرة الخلق ، أو منافرة الخالق ، فأغضب الناس ، ونافرهم ، ولا تغضب ربك ! » .. وفى الواقع لقد انطلق من مواقع سليمة بعيدة عن التعصب والهوى ، فلم يقل بأفضلية اللغــة أو الجنس أو اللون، فمثلا حينقال قوم'' بأفضلية العربية على اللغات لأن بهــا نزل كلام الله تعالى نراه يقول : هــذا لا معنى له ، لأن الله عز وجل قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولا الا بلسان قومه ، فبكل لغة قــد نزل كلام الله ووحيه ، وقــد أنزل

التوراة ، والانجيل ، والزبور ، وكلَّم موسى عليه السلام بالعبرانية . وأنزل الصحف على ابراهيم عليه السلام بالسريانية . فتساوت اللغات فى هذا تساوياً واحداً . ونراه يركز على أن التقليد حرام . ولا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان ، كما عاب على كل الذين يتحمسون لكل ما فى مذهب من المذاهب . المهم أنه يطلب من المسلم أن يحرّك ذهنه دائماً ، وأن يجعله مشرعاً كالسلاح ، فهو يطالبه بما يسمّيه « شدة البحث » . وهو يصرخ بكل آونة وأخرى بقوله : ايّاك والاغترار بكثرة صواب الواحد ، فتقبل له قولة واحدة بلا برهان ! . ثم انه صاحب القضية الهامة التى جاءت فى كتابه المحلّى : وأهل الاسلام كلهم أخوة ، لا يحرم على ابن زنجية لغية ـ بمعنى مهملة ـ نكاح ابنة الخليفة الهاشمي . ثم قال بعد أن أورد عدداً من آراء الفقهاء المتضاربة حول هذه القضية الهامة: ان الحجة فى ذلك هى قول الله تعالى : « انما

المؤمنون اخوة » . وقد تعرض لهذه القضية مرة أخرى في افتتاحية كتاب (جمهرة أنساب العرب) .

وكما ناقش قضايا الأديان الأخرى بحرارة وبموضوعية ، نراه يناقش الفرق داخل دائرة المجتمع الاسلامي . على حدّ ما نعرف من كتابه «النصائح المنجية من الفضائح المخزية . والقبائح المردية من أقوال أهل البدع من الفرق الأربع ، المعتزلة . والمرجئة . والخوارج . والشيع» على أن تركيزه الواضح كان على قضية « الوحدانية » باعتبارها جوهر الاسلام . فهو يعارض بحسم المشبهة الذين يقولون بأن الله جسم . وأمّا الألفاظ الموهمة مثل «فانك بأعيننا» و «الرحمن على العرش استوى» فيرى عدم تأوّلها على غير ظاهرها كالقول بأن المراد باليد القوة . وبالوجه الذات العليّة ، والاستواء على العرش بالاستيلاء الكامل . فهذه الألفاظ ـ من وجهة نظره ـ مجاز كتلك المجازات التى تملأ العربية . فوجه الله هو الله ، كقوله : « انما نطعمكم لوجه الله »

والمراد « الله » ، وبحيث يكون المقصود من الآية « أينما تولوا فثمَّ وجه الله » فثمَّ الله ، ويد الله هي الله ، وفى ضوء هذا يكون المراد من الآية « وما ملكت أيمانكم » ما ملكتُم من الجواري .. المهم أنَّه يحمل الآيات على الظاهر ، مالم يمنع نص ، أو اجماع ، أو ضرورة حسية .. وفى تعرضه لقضايا فقهية نراه يعتمد على الكتاب والسُّنة ، فهو يرفض الرأي ، ويبطلُ القياس ، ولا يرضى عن مبدأ التعليل والاستحسان والتقليد .

لا أنثنى نحو آراء يقال لها
في الدين .. بل حسبى كتاب الله والسُّنن

وهو يعتمد على ظاهر « التدين » فهو يقول : « ثق بالمتدين وان كان على غير دينك ، ولا تثق بالمستخف وان ظهر أنَّه على دينك ! »

وهو حين يؤرخ لأنساب العرب ، وللملل والأهواء . والنحل ، يتثبَّت من الروايات . ويتحقق من الأحاديث ، ويعتمدُ على العقل فى

التمحيص . وعلى الحس ، وقد سار في هذا الطريق الصَّعب لأن الناس كانوا قد بالغوا في التأويل ، والتهويم ، ومن ثم كان قوله : « واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن فيه ، وجهر ، لا سر تحته . كله برهان لا مشاحة فيه !»

.. أما لؤلؤته الحقيقية التي لا تزال تسطعُ حتى الآن ، فهي كتابه (طوق الحمامة في الألفة والأُلاف) . فمقامه في الأندلس كما ذكر «اميليو غرسيه غومُس» كمقام كتاب (الحياة الجديدة) Vita Nova لدانتي في ايطاليا «وهو طاقة زهر أريجة من الأقاصيص ، ومقطعات الشِّعر والتحليل النَّفسي الخلقي للحب » ولعل من أروع ما جاء فيه : أن من مات هوى فعلى الناس ديته !

■□■

وبصفة عامة فقد عاش حياة عاصفة مليئة بالأحداث ، وبالأفكار على حد قوله :

لم تستقر به دار ولا وطن

ولا تدفَّأ منه قطُّ مَضجَعهُ

كأنما صيغ من رَهو السحاب فما
تزال ريــــح الى الآفاق تَدفعه ُ !

ومما يعجب الناس من شعره قوله :

وددتُ بأنّ القـــــلب شُق بمــــدية
وأُدخِلت فيه .. ثم يُطبق فى صَدرى

فأصبحت فيــــه ، لا تحلّين غـــيره
الى مُقتَضى يــــوم القيـــامة والحشرِ

تعشين فيــه ما حييتُ فــــان أمت
ســكنت شغاف القلب فى ظـلم القبرِ

ولقــد أحب الأندلس حبّـاً عظيماً على الرغم مما لاقى هناك :

ويا جــوهر الصين : سُحقاً ! فقــــد
غنيتُ بيـــــــاقوتةِ الأَنـــــدلس

.. وقــد روع ـ ومعه ابن شهيد ـ حين رأى سقوط البيت الأموي ، وحين أرى أشياء عزيزة عليــه تسقط بسقوط قرطبة ، على أن هــذا اذا

كان قد انهــار فى عصره ، فان دولة «الموحدين» التى قامت فى القرنين السادس والسابع قد أفادت من مؤلفــاته ــ وقد قيل فيهــا كل العلماء عيال على ابن حــزم ــ وارتكــزت عــلى « المــذهب الظاهري » .



٩ - القاضي علي الجُرجاني

يجمع الذين كتبوا عن القــاضى « أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجُـرجاني » أنه من المتقدمين الذين أسهموا بعمق فى ارســاء قــواعد النَّقد الأدبي ، وأنَّه كانت له نظــرات صائبــة ظلَّت حية حتى اليوم ، فهو بحق من الذين تخطوا قوانين البلاغة الجافة ، الى عالم النَّقد الرَّحب .

لقد عاش حيــاة خصبة ما بين عامي ٣٢٤ الى ٣٩٢هـ ، وهو أساساً ينحــدر من أسرة عربيــة عرفت طريقهــا الى فارس بعــد أن فتحهــا الله للمسلمين في عهــد عمر بن الخطَّاب عام ١٨هـ ، ولقد تفتحت عقلية أبى الحسن كزهرة ناضرة فى جُـرجان . . وجُـرجان هذه هي التى قيل عنهــا : « وأهلها يأخذون أنفسهم بالتــأنى وبالأخــلاق المحمودة » ، ولقد عاش ممتلىء القلب بحب العلم،

وبالسّعي وراء المعرفة فما أكثر ما شاهدته أصبهان ، وخراسان ، وطبرستان ، والعراق ، والشام ، وما وراء النهر ، والحجاز .. الى حدّ قول الثعالبي عنه : « انّه خلف الخِضر فى قطع عرض الأرض ، وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرها » .

ولقد استقرت به الحياة فى نهاية الأمر حين تزوّج وأنجب ، على أن حياته سطعت تماماً حين أعجب به « الصّاحب بن عباد » فولاه قضاء جُرجان عام ٣٦٦هـ ، ثم تولّى « الري » بعد ذلك ، ومنصب قاضى القضاة ، ويمكن القول بأن حياته تشكّلت تماماً بروح القضاء فى كل القضايا التى تناولها ، ولنستمع اليه يقول من منصّة كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » :
« .. ولعلك اذا رأيت الجدّ فى السّعي ، والعُنف فى القول تقول انما وقفتُ موقف الحاكم المسدّد ، وقد صِرت خصماً مجادلا ، وشرعتُ شروع القاضى المتوسط ، ثم أراك حرياً منازعاً ، فان

خطر ذلك ببالك ، وحدَّثتك به نفسك ، فأشعرها الثقة بصدقي ، وقرّر عندها انصافي وعدلي ، واعلم أني رسول مُبلِّغ ، وسامع مؤد ، وأني كما أناظِرُك أناظِرُ عنك ، وكما أخاصمك أخاصم لك ! »

ونحن نعرف من سيرته أنه كان « معتزلياً » ، وأنه تجوَّل ـ كعادة العلماء المسلمين ـ في العديد من المعارف ، فنحن نعرف من كتبه كتاب (الوكالة) ، و (تهذيب التاريخ) ، و (صفوة التاريخ) ، و (ديوان شعر) ، و (مجموعة من الرسائل) ، وكتابه العظيم (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ، كما نعرف له تفسيراً للقرآن الكريم ، ولقد كان جديراً بقول الثعالبي عنه في (اليتيمة) : انه جمع خط ابن مقلة ، الى نثر الجاحظ ، ونظم البحتري .. كما جاء عنه في (عيون التاريخ) : انه كان من مفاخر جُرجان ، صنَّف تاريخاً وله الوساطة ، وتفسير القرآن ،

وكان حَسِن الخط ، حسن السيرة ، شافعيّ المذهب .

■□■

وابتداء فقد جاء فى عصر ذبول الدولة الاسلامية ـ على الرغم من النُّضرة الشاحبة فى بنى أمية ، وفى عصر الانصراف عن المثقفين وذوي الجباه العالية . ففى هذا العصر رأينا أبا علي القالي يبيع كُتبه ليعيش ، ورأينا الأبيوردي الشاعر يقول : بى علّة تمنعنى لبس المحشوّ ـ قاصد بالعلة الفقر ـ ورأينا عبد الوهاب البغدادي يفارق بغداد صارخاً : لو وجدتُ بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلتُ عن بلدكم !

.. والذى يهمنا حقاً أن نؤكده أنه كان حقاً من الرواد الذين أكَّدوا مذهب « التأثرية » فى وقت مبكر ، وناهيك برحلة هذا التيار الذى ظلّ متوغلا فى الحياة العربية حتى العصر الحديث ، وحسبنا أن نذكر أن الدكتور طه حسين قد وقف

على قمته وأصدر عنه فيما أصدر .. فالقــاضى الجُــرجاني قَـد دعا من وقت بعيــد الى ضرورة أن يقرأ الانسان القصيدة كما تقرؤه القصيدة ، وأن قارىء الشــعر عليــه أن يستحضر دائمــاً فى نفسه الحــالة التى يتحدث عنها الشاعر ، ثم ان عليه أن يترك نفسه تماماً للشاعر ليحدث فيــه الشاعر ما يريد أن يحدثه دون مقاومة ، ولنتأمل قوله : « .. انظر هل تجد معنى مبتذلا ، ولفظاً مشــتهراً ، وهــل ترى صــنعة وابــداعاً ، أو تدقيقاً واعراباً . ثم تأمل كيف تجد نفسك عند انشــاده ، وتفقد ما ينتــابك عنــد الارتياح ، ويستخفك من الطـَّرب اذا سمعته ، وتذكر صورة ان كانت لك ممثلة لضميرك ، ومصــورة تلقاء ناظرك » .

وهو من أجل احكام مذهبه ؛ نراه يأخذ بنظام « المقايسة » الذى يأخذ فى اعتباره مسيرة الشعر والشعراء ضعفاً وقوة . كما نراه يؤمن بالذوق الأدبي ، وبمراقبة المرء نفسه فى حالة التلقي ، الأدبي ، وبمراقبة المرء نفسه فى حالة التلقى ،

ولـكنه يتحرّز لذلك فيـذكر أن الحـكم فى ذلك يكـون للذوق المثقّف ، ثم انه يتعرّض للجمال فيـذكر أنه لا يقوم على هندسـة الشّكل ، وعلى تمام التوافق الخارجي ، وانما يقوم على شرارة خفيّـة تنفجـر من الداخل « وقد يكون الشيء مُتقناً مُحكماً ، ولا يكون حلواً مقبولا ، ويكون جيداً وثيقاً ، وان لم يكن لطيفـاً رشيقا ، وقـد نجـد الصـورة الحسـنة والخلقة التامة مقلِيّة ممقوتة ، وأخـرى دونهـا مستحلاة مرموقة » ، وقد حـدّد عمـود الشـعر بجـزالة اللفظ مع الاستقامة ، وشرف المعنى مع الصحة ، وأصالة الهدف ، والمقـاربة فى التشبيه ، والغـزارة فى البـديهة ، بالاضـافة الى الاكثـار من الآمثال السائرة والأبيات الشاردة .. ثم ان الشعر عنده « فِعل » فالشـعر الحقيقي هو الذى يسـتنهض المدوح للعطاء ، ويهزّ المشوق للقاء ، ويعيـد المغاضب الى سماحة الرضا والصفاء ، كما يؤكد أن المطلوب من الشاعر هو الكلام «الحسن اللذيذ»

أما الصدق ـ على حدّ تعبيره ـ فليترك للأنبياء !

■□■

والقاضى الجُرجاني يردّ على الذين يقولون : ان النقد العربي نقد يقوم على الجزئي ، وعلى البيت وجزء البيت . ذلك لأنَّه اهتدى الى نقد النَّص ككل ، فهو يورد مثلا قصيدة كاملة لجرير ثم يعقب عليها جميعاً ، بل انه قد اهتدى الى النظر الى الشاعر ككل بهذين المصطلحين اللذين نجدهما فى كتاباته ، وهما : الأشباه والنظائر والمقاصَّة ، ولنتأمل قوله : «هذا ديوانه ـ يقصد المتنبي ـ حاضراً ، وشعره موجوداً ، هلم نستقرئه ، ونتصفَّحه ، ونُقلبه ، ونمتحنه ثم لك بكل سيئة عشر حسنات ، وبكل نقيصة عشر فضائل ، فاذا أكملنا لك ذلك واستوفيته ، وقادك الاضطرار الى القبول أو التَّبَهُّت ، ووقفت بين التسليم والعناد ، عُدنا بك الى بقية شعره فحاجبناك به والى ما فضل بعد المقاصَّة فحاكمناك اليه » . .

فنظرته فى أساسها لا تقوم على حصر الأخطاء العروضية ، أو النحوية ، أو الصرفية ، أو البديعية ، وانما تقوم على حكم موضوعي يعتمد أساساً على الاحصاء الكلي لمفردات العمل ، بحيث لا يتم الحكم الا بعد الاحاطة الشاملة ، والا بعد المقاصَّة ـ على حد تعبيره .

.. ثم ان هناك قضية هامة أبرزها الدكتور « احسان عباس » فى كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) فقد ذهب الى أن كتاب الوساطة يرمز الى اكتمال القضايا النَّقدية . فقد قال : ويبدو من حشد المؤلف لأهمّ الآراء النَّقدية السابقة أن القضايا النقدية الكبرى قد استدارت واكتملت ، صحيح أن الجُرجاني لم يتعرض لبعض القضايا الهامة ، مثل العلاقة بين اللفظ والمعنى ، ولا استطاع أن يضع مقاييس ايجابية للجودة كالتي وضعها ابن طباطبا وقدامة ، ولكن وقفته أمام القضايا التى عرض لها تدلُّ على أن النقد العربي أصبح بحاجة الى منافذ جديدة ،

فان لم يستطع الاهتداء اليها أخذ يدور على نفسه .

■□■

وهو ــ من موقعه من القرن الرابع الهجري ــ قد اهتدى الى العديد من القضايا التى اعتُبرت فتحاً لمن جاء بعده ، فهو من الذين يؤكدون أن الدين شيء والشعر شيء آخر ، ثم يصل الى هذا المفهوم الذى يقول : الشِّعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطَّبعُ والرَّوية والذكاء ، ثم تكون الدُّربَةُ مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، وهو يرى أن الشِّعر هو الشاعر حين يقول فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطَّبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخِلقة ، وهو ــ مثل الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن طباطبا والصولي والحاتمي ــ قد انحاز لكل ما هو جديد، وقد ذهب بحسم مع المحدثين فى مواجهة الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين ، فما يُقال عن لِينهم يراه نقاء ، وما يرونه ضَعفاً يراهُ رشاقة ،

وهو حين يرى أن الشاعر الحاذق من يجتهد فى تحسين الاستهلال والتخلّص والتركيز على الخاتمة ، يجب أن ننظر الى قوله هذا ــ وغيره ــ فى ضوء درامية العمل كله وبخاصة الأعمال المركبة الرّحبة . فهو لم يقصد أن تكون كل واحدة صندوقاً مغلقاً دون الأخرى وانما لعله قَصد أن يكون لكل عمل بَدء'' ووسط ونهاية .

.. ومع انه يمزج بين المنهجين التاريخي والفني الا أننا نجده لا ينسى المنهج النفسي فى ضوء ما رأينا من أحاديثه عن التفاضل ، والتنافس ، والتحاسد ، والاسقاط من الشاعر على عمله !

.. وأخيراً فالقاضي الجُرجاني يذكرنى بالقول الذى يقول : اننا فقراء لا لأننا لا نملك ، وانما لأننا لا نعرف ما نملك !

١٠ - عبد الله البطليوسي

اذا كان المعروف عن المثقّفين المسلمين أنّهم بصفة عامة من جيل « المَوسُوعيين » ، وأن كثيراً منهم لم يقف عند ظاهرة « التخصص » فاننا لا بدّ أن نضع ظاهرة الموسوعية هذه فى اطارها الصّحيح ، حتي نفهمها ، وحتى نعرف الدّوافع التى دفعت اليها .

فالملاحظة العامة أن كثيراً من الكتب « الجامعة » ، وكثيراً من المؤلفين الذين عزفوا على أكثر من آلة ، كانوا بصفة عامة يتكاثرون فى فترات الضّغط على الحضارة الاسلامية ، ومحاولة تفتيتها ، وابعادها عن دائرة الضوء والتأثير .

ولقد كان من الطبيعي أن يتم هذا كله فى فترات الغروب ، أو الغسق لمراكز الثقافة الكبيرة ، ومن هنا كان المثقفون المسلمون يجهدون أنفسهم ،

ويعملـون بأكثر ممـا يطيـق العقـل والقلب واللسان فى الميـادين العـديدة . وقد كان وراء هذا بلا شك الخـوف الكبير على « ذاكرة الأمة » من أن تضيـع . وكان وراءه الحـرص على أن يكون كل واحد من النـاس « شاهد عصره » ..
وما أفدح العبء الذى قام به هؤلاء الكُتاب وهم يقاومون الغزو من الخارج ممثلا فى الـكثير من أعدائهم مثل الصليبيين ، والتتار ، والاستعمار ، وما يسمَّى الآن بالاستعمار الحـديث ، ثم وهم يقاومون ـ كذلك ـ الغزو من الداخل حين تحتل الحضارة نفسها بنفسها ، وحين يدخل أبناؤها فى صراع عقيم من أجل الثـأر ، أو السلطـة ، أو الرغبة فى نقض البناء من الداخل !

.. ونحن لـكي نوضح هـذه الظـاهرة ، لن نتعرّض لهؤلاء الذين أضاءتهم الأقلام من قبل ـ وما أكثرهم فى حياتنا ـ وانما نتعرّض لواحد من هؤلاء « اليتـامى ! » الذين لا نقف عنـدهم كثيراً ، والذين نكاد ننكرهم ، والذين لا ندعوهم

الى مجالستنا ، ومحاورتنا فى هذا العصر المؤار بالرجال والأفكار ، وكأنَّهم عارُنا الذى ليس بعده عار !

مهما يكن من شيء فالرجل الذى نوجه اليه « بطاقة دعوة » الآن هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السَّيد البطليوسي المولود عام ٤٤٤هـ فى بطليموس ببلاد الأندلس ، والذى كان وجهاً مشرقاً من وجوه الثقافة فى الأندلس ، الى حدٍّ أن الفتح بن خاقان فى كتابه «أزهار الرّياض » يقول عنه : « .. هو أزخرُ علمائنا بحراً ، وأوسعُهم نحراً ، وأحسنُهم خواطراً ، وأسكبهم مواطراً ، وأسيرهم أمثالا ، وأعدمُهم منالا ، وأصدقهم لساناً ، وأعمقهم احساناً ، وأرفعهم راية ، وأبعدهم غاية ! » كما جاء عنه فى بُغيةِ الملتمس للضبيّ : « .. امام فى اللغة والآداب ، سابق مُبَرَّز ، وتواليفُه دالة على رسوخه ،

واتساعه ، ونفوذه . وامتداد باعه ، وكان ثقة مأموناً على ما قيد وروى ، ونقل وضبط » .

■□■

والبطليوسي قد عاش فى عصر انكسار الحضارة فى الأندلس ما يقرب من سبعة وسبعين عاماً ، فبعد أن اكتملت الدورة ، وبعد أن أصبحت للأندلس شخصيتها العلمية والأدبية ، وبعد أن سرقت الضوء من المشرق كله .. بعد هذا ـ وفى عصر ملوك الطوائف ـ مالت الى الزّوال ، واستحالت شمسُ فكرها الساطعة الى قرص مهزوز ، والى أشعة مرتجفة .. فقد تعدّدت الامارات ، وانفصلت المدن ، وأصبحت الحياة هناك ميداناً بغيضاً للصراع الشخصي ، ذلك لأن كل ملك أو أمير ما يكاد يجمع حوله بعض الجند ، وبعض الأسلحة ، وبعض المكر حتى يُسَيِّرها فى طوابير غاضبة الى جيرانه ، وبهذا تحوّلت الأندلس التى كانت متماسكة الى دولة

مبقورة البطن ، متناثرة الأعضاء والأفكار ، مما حدا بالصقور الجارحة الى انتهاز الفرصة للتخلص من هذا الكيان المريض ، ولقد كان من المؤلم حقاً أن هؤلاء الملوك والأمراء كانوا يستعينون بأعدائهم من ملوك الأسبان على اخوانهم المسلمين .. وهكذا حفروا قبورهم بأيديهم !

.. ومهما يكن من شيء فقد مارس البطليوسي حياته ، كما مارسها كل الذين يرغبون فى تثقيف أنفسهم من ينابيع ثقافة القرآن والحديث وعلوم اللغة ، ثم نراه ــ بعد فترة ــ يضطر ــ كأبناء عصره ــ الى خدمة الملوك ، ولمّا كان غير متفرّغ ، وغير عارف بالدّوامات التى تدور فى القصور ، فاننا نرى « ابن رُزين » أمير السَّهلة يبطش به ، بعد أن كان له عنده ــ كما ذكر الفتح بن خاقان « مجال ممتد ، ومكان معتد » ولكنه خلص منه « خلوص السَّيف من صقاله » ثم نراه يلتحق « بسَرَقُسطه » فى

خدمة المستعين بالله بن هود الذى كان قد مدحه من قبل بقوله :

تنكَّرت الدُّنيا لنا بَعد بُعدِكم
وحَفَّت بنا من مُفضِلِ الخطبِ ألوانُ

أناخت بنا فى أرض شنتَ مرية
هواجسُ ظَن خَنَّ والدهرُ خوَّانُ

وشِمنا بروقاً للمواعيد أتعبت
نواظِرها دَهراً .. ولم يَهم هتانُ

فَسِرنا وما نلوى على مُتَعذّر
اذا وطن أقصاك آوتك أوطانُ !

ولكنه بعد أن عاش فترة فى خدمته أقدم على أمر جريء فى عصره ، وهو الابتعاد ـ بحسم ـ عن كل الأمراء وأصحاب القصور الكبيرة ، وقد تكونت هذه الفكرة عنده ، حين رأى «طُلَيطلة» تسقط سقوطاً مدوياً عام٤٧٨هـ فى يد «ألفونسو السادس» فما يكاد يتم هذا حتى نراه يعيشُ فيما يشبه «الاعتكاف» فى «بلنسية» . وفى هذا المكان

من الأندلس المتداعية ، أخذ يُعلّم الناس ، ويكتب بغزارة ، وفى الوقت نفسه يصرخ بأن الشمس من فوقهم ـ وداخلهم ـ تتصدّع ، وأن هناك ليلا حزيناً قادماً على البلاد !

■□■

.. ونظرة الى مؤلفات البطليوسي العديدة تُعطينا مفتاح شخصية هذا الرجل ، وتعطينا تنوع معارفه ، وطبيعة ما كان يحتاجه عصره ، فله الكتب الآتية :

١ ـ الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب .
٢ ـ الاسم والمسمى .
٣ ـ أبيات المعاني .
٤ ـ الأسئلة .
٥ ـ التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة
٦ ـ التذكرة الأدبية .
٧ ـ عِلل الحديث .
٨ ـ الحُلل فى شرح أبيات الجمل

٩ ـ الرد على اعتراضات ابن العربي عليه فى شعر المعرّي .

١٠ـ الحدائق فى المطالب الفلسفية .

١١ـ شرح سقط الزّند .

١٢ـ شرح ديوان المتنبي .

١٣ـ شرح الخمسة المقالات الفلسفية .

١٤ـ شرح الموطأ .

١٥ـ الفرق بين الحروف الخمسة .

١٦ـ فهرسة ابن السيد .

١٧ـ المثلث فى اللغة .

١٨ـ المسائل المنثورة فى النّحو .

١٩ـ المسائل والأجوبة .

٢٠ـ الخلل فى أغاليط الجمل .

. وهو كعادة الكُتّاب المسلمين يبدأ كل مؤلفاته بحمد الله ، والصلاة على نبيه ، ونحن لو وقفنا عند كتابه «الاستبصار» نجد أنه درس عميق فى النقد الأدبي ، والبعد عن السفاسف ، فمع أنه يردّ به على « ابن العربي » الذى كان

قد أخذ عليه بعض المآخذ فى شرحه للمعرّي ، الا أن الكتاب ملىء بمثل قوله عنه : أبقاك الله . أعزّك الله . أكرمك ، ثم انه يعرض المآخذ بأمانة ، ثم يرد عليها بموضوعية، وهو حريص، فى نقده على توضيح ما يقوم عليه الشكل الفني من سلامة اللغة والوزن وتقديم المعنى المناسب فى الكلمة المناسبة ، وعلى تفسير الشاعر بشعره ، وعلى ما يمكن أن يطلق عليه حديثاً باسم أساليب «الوضعية المنطقية» .

.. ثم اذا كنا فسرّنا بالبطليوسي ظاهرة الموسوعات ، فانه يمكن أن نستشهد به كذلك على هؤلاء الذين ينكرون جوانب مهمة من النقد الأدبي فى الأدب العربي ، والتركيز على أنه لا يخرج عن كونه هجاء وسباباً وتتبعاً للسرقات ووقوفاً عقيماً عند قضية اللفظ .. فالوجه الحقيقي لحضارتنا لما يزل فى الكثير منه ، فى طي الظّلمة والكتمان .

١١ ـ أسامة بن منقذ

من الدلائل على حيوية الأمة العربية ، أنها حتى فى فترات الضّعف والتفكك لا تبخل بالرجال الكبار ، والأفكار الكبار ، ففى الوقت الذى كانت فيه الموازين فى بغداد تميل فى غير صالح الأمة العربية ، وكان فيه الفاطميون يغوصون فى مياه الدسائس والفتن ، وكانت فيه بلاد الشام تُلهب بسياط الصليبيين .. فى هذا الوقت بالذّات نتعرّف على شخصيتين كبيرتين هما : صلاح الدين الأيوبي ، وأسامة بن منقذ ، وعلى حد تعبير العقاد : « .. ظاهرة عجيبة فى الزمن الأهوج الذى لم يشتهر بشيء كما اشتهر بالقلاقل والمفاجآت ، ولكنها مع ذلك هي الظاهرة المنتظرة من زمن لم توجد فيه قوة واحدة بغير مناقض لها ، ومتربص بها ، وعدو يصدها عن

سبيلها ! » .. وما يهمنا هنا هو الفارس ، والأديب ، والشاعر « أُسامة بن منقذ » .

■□■

اننا نعرفُ ابتداء أنَّه وُلِدَ فى تلك القلعة الحصينة التى جاء ذكرها فى شعر امرىء القيس ، والتى فتحها المسلمون بعد ذلك عام ١٧هـ ، وسموها « عُرف الدِّيك » ، ويبدو أنَّها كانت على عهد بنى منقذ فى أوج اكتمالها ، فقد كانت وفيرة الخيرات «ويخرج منها خمسةُ آلاف مقاتل» ، وكل من تعرض من المؤرخين لهذه القلعة التى كانت قرب « حَماة » يؤكد أنها كانت درَّة بلاد الشام !

ومن كتابات أُسامة نتعرف على ملامح والده الفارس ، والشاعر ، ونتعرف على المناخ الذى عاش فيه « .. وكُنا اذا وصلنا موضع الصَّيد ينزلُ عن الفرس ، ويجلس على صخرة ، ويقرأ القرآن ، ونحن نتصيَّد حوله » ، وفى الوقت نفسه نتعرف على بسالة أمه التى كانت لها

مشاركة فى الحرب ، والتى يُروى ـ حين حوصرت القلعة ـ أنها أخذت ابنتها الى مكان مرتفع ، ثم طلبت من أسامة اذا تقدَّم الأعداء أن يدفعها الى الوادي .. حتى تـراها قـد ماتت ، ولا تـراها مأسورة !

ونحن نعرف أن والد أسـامة رفض الولاية ، وولاَّها أخاه « سـلطان » ، وكـان ممـا قاله : « والله لا وليتُها ، ولأخـرجن من الدنيـا كمـا دخلتها » ، ومع أن « سلطان » أحسن الى أبنـاء أخيـه فى أول الأمر ، الا أنه سرعان ما تسخَّط عليهم ، وبخاصة أسامة ، لمـا رآه من تمـيزه ، ورسوخه ، وشخصيته ذات الاشـعاع السَّاطع ، ومن هنا كان على أسامة ومن يلوذ به أن يغـادر القلعة .. على أن خروجه كان خـيراً عليه ، ذلك لأن هذه القلعة سرعان ما أصبحت فريسة لهـذا الزلزال الذى وقع فى الجـزء الشمالي من سوريا عام ٥٥٢هـ ، ومن هنا كان القضاء على الكثيرين

من الذين كانوا يعيشون بها ، وقد صور أسامة هذا الحادث شعراً فقال :

حمائم الأيكِ هَيّجتُنَّ أشجانا
فليبك أصدَقُنا بثاً وأشجانا

وفاجأتهم من الأيام قارعة
سَقَتهُم بكؤوس الموت ذيفانا

أعزز عليَّ بهم من مَعشَر صُبُر
« عند الحفيظةِ ان ذو لوثة لانا »

لم يترك الموتُ لى من بعد فقدهم
قلباً أُجشِّمُه صَبراً وسلوانا

فلو رأونى لقالوا : ماتَ أسعدُنا
وعاش لِلهمِّ والأحزان أشقانا

لم يترك الموتُ منهم من يخبِّرنى
عنهم .. فيوضِحُ ما لاقُوه تبيانا

هذى قصورهم أَمسَت قُبورَهُمُ
كذاك كانوا بها من قَبلُ سُكَّانا

ريحُ الزلازل أفنت معشرى فاذا
ذكرتهم .. خلتُني فى القوم سكرانا

بنى أبى .. ان تبيدو .. ان عدا زمن''
عليكم دون هذا الخلق عدوانا

فلن يبيد جوى قلبى ، ولا كمدى
عليكم .. أو يُبيد الدهر ثهلانا

أفسدتُم عمرى الباقى عليّ فما
أنفكُّ فيه كئيبَ القلب ولهانا !

وقد تقلّد أسامة بعض الوظائف فى دمشق مثل « ادارة الشّحنة » ، ولكنه وقع فى خلاف مع السُّلطة الحاكمة ، ولما كان يعرف عنه أنّه يمكنُ ببساطة أن يُغدر به ، نراهُ يتوجه الى مصر ، ومع أنه حاول أن يبتعد عن الدسائس التى كانت سِمة العصر الا أنه لم ينجح ، ومن هنا كان اتهامه بالتحريض على قَتل السُّلطان ، وكانتْ معركة حامية عرف بعدها أُسامة أنه لم يعد له بقاء ، ونحن نعرف بعد ذلك أنه اتصل

بنـــور الدين ، وصـــلاح الدين . وأنه أبلى بلاء حســـنا فى محـــاربة الصليبيين .. ومن كل هـــذا نعرف أنه عاش حياة مليئة بالتوتر والصراع ، فقـــد دافع ببســـالة «الحشاشين» حـــين حاصروا القلعـــة فى وقت مبكر . كمـــا دافـــع عن وطنه الروم ، والصليبيين بصفة خاصة ، وهو نفســـه يقول : « حضرتُ من المصافات والوقفات مهول أخطارها ، واصطليتُ من سعير نارها ،وباشرتُ الحـــرب وأنا ابن خمس عشرة سنة الى أن بلغتُ التسعين ، وصرتُ من الخوالف ، خدين المنزل ، وعن الحروب بمعزل ، لا أعـِدُّ لمهم ، ولا أُدّعى لدفـــع مُلم ، بعـــد ماكنت أول من تثنى عليـــه الخناصر » .

.. ونحن اذا كنا نعـــرف له هذه الجســـارة فى الحرب ، فانَّا نعرفُ له نوعاً آخـــر من الجســـارة العقلية والوجدانيـــة ، بحيث يتكوَّن من هذين العالمين مزيج رائع يندُر وجوده فى الحضارات ، فقد كان كما قال العماد : « .. أسامة كاسمه فى

قوة نثره و نظمه، يلوح من كلامه أمارة الامارة ، ويؤسس بيت فريضة عمـــارة العبـــارة ، حـــلو المجالسة ، حالى المســاجلة ، ندي النَّدي بمـــاء الفكاهة ، عالي النجم فى سماء النباهة » ، ومما يلفتُ النظر ـــ بحق ـــ أنَّه أول من جمع الشجن العربي بعمق ثم وضعه بين دفَّتين ، فقـــد أراد أن يتسلَّى عن أهله ، بجمع كل ما قيل فى هـــذا الجانب الباكي الذى يتمثَّله فى حياة العربي حين يفارقُ أهله ومنازله ، وفى ضوء هذا توهجت فى الحيـــاة العربيـــة تلك الموسوعة الباكية المسمَّاة « المنازل والديار » ، والتى يقول عنهـــا محققها مصطفى حجازي : انها تضم نحو خمســـة آلاف بيت من جيد الشِّعر العــــربي ، أكثر أصحابهـــا ممن يحتجُ بشعرهم على اللغة وقواعدها ووصولها الينا بخطـــه يعد مصـــدراً من مصـــادر الرواية لا يصح أن يُغفل ، وقد ظل هذا الجانب الباكي فى حياته يزلزله ، فهو يقول مثلا فى كتاب « لباب الآداب » : « وقد أردتُ فى كتابى المترجم بكتاب

« التـأسى والتسـلى » من المـراثى والتعـازى ما غنيتُ به عن الاطالة هنا » .

.. ثم اننا أمام سيل مؤلفاته نعثر على الترجمة الذاتية ، وعلى التاريخ ، وعلى المباحث البلاغية، وفى شعره نراه متعدد الأغراض ، نقيَّ العبارة ، ريّان الموسيقى ، ثم ان له ميلا خاصاً الى الكتابة فى الجـوانب العليلة من الحيـاة ، فهو يكتب عن الهمـوم ، والمـرض ، والشيب ، وفى انسـان محبـوس ، وفى السـأم من الحيـاة ، وما أكثر ما وقف عند فـكرة الموت ، بالاضـافة الى فكرة «الرحيل» التى توجد بعمق فى الوجدان العربي، ومن أساليبه فى كتابة القصيدة أنه كان يضمِّن بعض الأبيات المشهورة ، فقد ضمن فى شعره مثلا أبيـاتاً لقـريط بن أنيف العنبري ، والمتنبي ، ونحن لا ننسى أن له كتاباً ساطعاً هو «كتاب البديع فى علوم الشعر» وهو فى هذا الكتاب يقدم خلاصة نقية لكل ما كُتب عن الشـعر قبل ذلك ، فقـد

قدَّم خمساً وتسعين خاصية من خواص المحاسن والعيوب، بدأها بالتجنيس ، وأنهاها بالتهذيب.

.. ولقــد مدَّ الله فى عمره فكانت وفاته عام ٥٨٤هـ–١١٨٨م عن ستة وتسعين عاماً ، ومعنى هذا أنه عاش العــديد من الأحــداث ، وبخاصة الحــروب الصليبية التى عاش بدءها وختامهــا ، وقد صور هذه السنوات بقوله :

فاعجب لضعف يدى عن حملها قلمــاً
من بعد حَطم القَنــا فى لُبَّة الأسدِ
وان مشيتُ ــوفى كفى العصاــ ثقلت
رجلى .. كأنى أخوض الوحل فى الجلدِ
فقــــل لمـــــن يتمنى طُول مُدته :
هذى عواقب طول العمر .. والمُددِ !

.. مهما يكن من شيء فقد كان احدى هــدايا الزمن للأمة العربية فى أوقات ضعفها ، ولقــد كانت هدية أسعدت بحق هذه الأمة التى توجــد دائماً فى شجرتها الباسقة أوراق خضراء .. وآمال خضراء !

١٢ - ابن الجوزي

هناك من يعتقد ـ أو يظن ـ أن المفكرين المسلمين ممتلئون بالعبوس ، وغاصّون بالصّرامة ، وأن من الصّعب على الانسان أن يتصورهم ضاحكين ، أو باسمين ، أو مقبلين على الحياة ، أو آخذين نصيبهم منها .. صحيح أن بعض المؤرّخين يحاول فصلهم عن الحركة الطبيعية للحياة ـ حباً لهم أو جهلا بهم ـ ولكنه ينسى أنّه بهذا يَحكمُ عليهم بالجمود ، وبالبوار .

وعلى كل فالمطلوب الآن ألا تنعزل هذه الشخصياتُ عن مداراتها ، وعن حركة التاريخ الحضاري التى لا تتوقف ، ولن يتحقّق هذا اذا « حَجَّرناها » وقَرّبنا بين حواجبها ، وعزلناها عن الحركة النّشطة فى الحياة .. وفى الوقت نفسه جعلنا صوتها خشناً ، وغليظاً ، ومُعتِما ،

فالناسُ اليوم تقاد بالعقل ، والحوار ، لا بالسواط ، والسّيف ، والصّلف !

.. لقد دعانا لهذا ما نعرفه من أن «أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن » المشهور عند الناس بالفقيه الحنبلي ، والامام ابن الجوزي ، قد ألّف كتاباً ضخماً يدور كله حول قضايا الحب وأشواقه ولواعجه ، صحيح أن عدداً من المسلمين سبقوه الى هذا كابن داود فى «الزّهرة» وكابن حزم فى كتاب (طوق الحمامة) ، ولكن أحداً لم يُقَنِّن الحب ، ولم يُنَظِّره ، ولم يتعرف على دوافعه بعمق مثل الامام ابن الجوزي !

.. وأيا ما كان الأمر ، فقد كانت حياةُ الامام ابن الجوزي بين عامي ٥٠٨ ــ ٥٩٧هـ (١١١٤ ــ ١٢٠١م) ولقد كانت حياة خصبة وجادة ومثمرة ، ونحن نعرف ابتداء أن نسبته الى « مَشرَعة الجوز » من مَحالِ بغداد ، وأن أهله كانوا يتاجرون فى النحاس ويبدو أن حياته المبكرة كانت حزينة ، فقد مات أبوه وهو صغير ،

ثم ان أمه ــ على حد تعبيره ــ لم تلتفت اليه ! ومن هنا رأينا عَمَّته تتعهده ــ ومعها خالُه ــ حتى اشتد عودُه ، وقدر على مواجهة الحياة ، ويمكن أن نرى صورة لحياته الأولى من قول عماد الدين أبى الفداء فى كتابه (البداية والنهاية) ، فقد قال : « .. كان وهو صبي دَيِّنا ، مجموعاً على نَفسه ، لا يُخالط أحداً ، ولا يأكلُ ما فيه شُبهة ، ولا يخرج من بيته الا للجُمعة ، وكان لا يلعبُ مع الصبيان ! » ونجد الصورة تكتمل بقول الموفَّق عبد الحميد : « .. كان ابنُ الجوزي لطيف الصُّور ، حُلو الشمائِل ، رخيمَ النَّغمة ، موزون الحركات ، لذيذ المفاكهة ، لا يضيِّعُ من زمانه شيئاً ، يكتب فى اليوم أربع كراريس ، ويرتفعُ كلُّ سنة من كتابته ما بين خمسين مجلَداً الى ستين ، وله فى كل مشاركة ، وكان يراعى حِفظ صِحَّته ، وتلطيف مزاجه ، وما يفيد عقله قوة ، وذهنه حدة ، يعتاض عن الفاكهة بالمفاكهة .. » وفى ضوء

هذا كله نرى أننا أمام شخصية غير عادية ، بدأت تتفتح على الحياة فى «البصرة» ، ، وبدأت تزدهر بالاقبال على عدد من أعلام عصره مثل (علي بن عبد الواحد الدّينوري) ، (وأبى الحصين) ، و (أبى عبد الله البارع) .. الخ .

.. المهم أنه ألقي نفسه القاء في بحر المعرفة ، وأنه قد سبح فى هذا البحر سباحة شديدة ، فقد كان كما تحدّث عن نفسه ينسى طعامه طيلة اليوم لاشتغاله بصفة خاصة بجمع الحديث الشريف، وهو يسوق تعبيراً جميلا ونادراً فيقول، انّه من كثرة سماعه لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صار له « كابن بل أجود ! » فقد كان لا يذكر حديثاً من الأحاديث ـ حتى وهو فى سنّه المبكرة ـ الا ويقول فيه انه صحيح ، أو حسَن ، أو محال ، فالملاحظ أنه لم يكن يخطف العلم خطفاً ، أو ينقر بساتين المعرفة نقراً ، ذلك لأنه كان يتحرّى ، ويستقصى، ويستوعب ، ويقارن، ويُعَنّي نفسه أشد العناء ليصل الى كُلّ ما هو

حق ، وهو نفسه يقول : « .. انى رجل حُبِّبَ اليّ العِلم من زمن الطفولة فتشاغلتُ به ، ثم لم يُحبَّب اليّ فن واحد منه ، بل فنونه كلها ، ثم لا تقتصر هِمَّتى فى فن على بعضه ، بل أروم استقصاءه ! » ومن هنا لم يكن (ابن خِلِّكان) مبالغاً حين ذكر أنه جُمِعَت « براية' أقلامِه » فحصل منها الكثير ، الى حد أنها ، كما أوصى — حين أُوقِدت لِيُسَخَّن بها ماءُ غسله بعد موته كفت ! وفَضَل منها !

وقد جاء فى كتاب (مفتاح السعادة) : « كتب بيده نحواً من مائتى مجلدة ، وتفرَّد بفن الوعظ الذى لم يُسبق اليه ، ولا يلحق شأوه فيه ، وفى طريقته ، وشكله ، وفى فصاحته وبلاغته ، وعذوبته ، وحلاوة ترصيعه ، ونفوذ وعظه ، وغوصه على المعاني البديعة ، وتقريبه الأشياء القريبة فيما يُشاهد من الأمور الحسية ، ويمكن أن نقف على نضارته الفكرية من عدد من كتبه التى وصلت الى ثلثمائة مؤلَّف ، كما يمكن أن

نتعرف على طبيعة ثقافتــه من أسماء بعض كتبه التى منها :

١ ـ الأذكياء وأخبارهم .

٢ ـ مناقب عمر بن عبد العزيز .

٣ ـ تلقيح فهوم أهل الآثار فى مختصر السـير والأخبار .

٤ ـ روح الأرواح .

٥ ـ المدهش .

٦ ـ المقيم والمقصد فى دقائق العربية .

٧ ـ الوفا فى فضائل المصطفى .

٨ ـ الذهب المسبوك فى تاريخ الملوك .

٩ ـ تلبيس ابليس .

١٠ـ دفع شبهة التشبيه والرد على المجسمة .

١١ـ الظراف والمتماجنون .

.. ثم ان لـه التفسـير الـكبير المسمى « زاد المسير » فى عشرين مجلداً .

وما يحكم هذه المؤلفات الغزيرة جميعاً هو استقصاؤه ، وهو تحريه لما يتعرّض له ، وهو الميل الى « المنهج التاريخي » فيما يكتب ، وهو القرب من حركة العقل النشطة بقدر الامكان ، ولعل هذا وغيره كان وراء موقفه الصارم من الصوفية ، ومن أصحاب المذهب المادي فى عصره ، كما نعرف بصفة خاصة من كتابيه (تلبيس ابليس) ، و (دفع شبهة التشبيه والرد على المجسمة) .

ولقد شَغل ابن الجوزي عصره ، وشُغل بعصره ، فلم ينعزل هذا النوع القاتل من العزلة ، ولم يكن يهمه أن يطلب رضاء الناس ، وأن يبتعد عن المناطق الخطرة فى العلم ، بل لقد كان يحب فى الحين بعد الحين منازلة العديد من القضايا التى كانت تموج عليه موجاً شديداً ، وقد جرّ عليه موقفه الفكري هذا عداء الكثيرين ، على حد ما نعرف مما كتبه عنه (موفق الدين القدسي) و (ابن رجب) و (ابن الأثير) ،

وعلى الرغم من هذا فنحن نعرف عنه أنّه حافظ على تماسكه الرائع بعيداً عن حكام عصره ، والمؤثرين فيه على نحو من الأنحاء ، خاصة بعد أن دخل مع الكثيرين منهم فى بعض التجارب المريرة ، فكاد أن يفقد على حد تعبيره « تلك الحلاوة » التى يجدها كل من يتمسك بآرائه ، وينشرها من أجل وجه العلم فقط .. وما أروعه من وجه !

وهو نفسه قد قال حين أوشك فى فترة أن يكون مجرّد رقم حول البارزين من الحكام فى عصره : « .. انعدم ما كنتُ أجدُ من استنارة وسكينة ، وصارت المخالطةُ توجبُ فى القلب الى أن عُدِم النور كله ! » ولكنه أدرك نفسه ، وتماسك هذا النوع من التماسك الذى يليق به !

ولقد وعظ مرة الخليفة المستضىء فقال : يا أمير المؤمنين .. ان تكلمتُ خِفت منك ، وان سكت خِفتُ عليك ، وان قول القائل لك : اتق الله خير لك من قوله لكم : انكم أهل ببيت مغفور

لكم ، وكان عمر بن الخطاب يقول : اذا بلغني عن عامل لى أنه ظلم فلم أغيره فأنا الظالم. وكان يوسف لا يشبع في زمن القحط حتى لا ينسى الجائع ، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول : قرقرى أو لا تُقرقرى ، والله لا ذاق عمر سمناً ولا سميناً حتى يُخصب الناس!».

.. ولعل هذا يوضح أنه لم يكن يكتب كتبه استجابة للحكام ، وانما استجابة لكل ما يهم حياة المسلمين . الى حد أنه يكتب كتاباً هاماً بعنوان (ذم الهوى) استجابة لصديق له نهو يقول في مفتتحه : « .. اعلم يا أخى انك لم تَشْكُ الي مرضك الا وفيك بعد بقية ترجي بها السلامة .. واعلم أني قد نزلتُ لأجلك في هذا الكتاب عن يفاع الوقار الى حضيض الترخّص فيما أورد ، اجتذاباً لسلامتك ، واجتلاباً لعافيتك ، وقد مددت فيه النَّفَس بعض المدّ ، لأن مثلك مفتقر الى ما يلهيه من الأسمار

عن الفكر فيما هو بصدده من الأخطار . فليكن هذا الكتاب سميرك » .

.. والملاحظ أنه فى هذا الكتاب الجديد النبرة فى الفكر الاسلامي . كان يحاول تأصيل بعض الجوانب الروحية فى حضارة الاسلام ، حين رأى فى عصره هذا النوع من الترف الغليظ . وحين رأى الاقبال على المُتع المادية يكاد يكون الملمح الرئيسي للعصر الذى عاش فيه . فقد عاش كما ذكر محقق هذا الكتاب الدكتور « مصطفى عبد الواحد » فى بغداد فى القرن السادس « حيث كانت الشهوات والأهواء مرضاً فاشياً لفراغ النفوس من الأهداف ، واخلادها الى الراحة والنعيم » .

■□■

وفى الواقع لقد عاش « ابن الجوزي » حياة عميقة وجادة ومفيدة ، فقد كان مشغولا بمقومات الأمة الاسلامية ، وحريصاً على كل ما يُعطى المسلمين التماسك ، وطامحاً الى أن

تكون للمسلم شخصية مميزة من خلال ما يعتنق من فكر ، ومن خلال الاطار الروحي للحضارة الاسلامية، ولعل مما يدل على هذا قوله : «..اعلم أن الرواية بالأسانيد المتصلة ليس المقصود منها فى عصرنا ، وكثير من الأعصار قبله اثبات ما يُروى، اذ لا يخلو سناد منها عن شيخ لا يدرى ما يرويه ، ولا يضبط ما فى كتابته ضبطاً يصلح لأن يعتمد عليه فى ثوته ، وانما المقصود بها ابقاء سلسلة الأسفر التى خُصَّت بها هذه الأمة زادها الله كرامة ! »

تلك حياة رجل كان لكل ما قاله قيمة ، ذلك لأنه أجهد نفسه فى البحث عن « تصور مميز » وحين اهتدى الى هذا النوع من التصور الاسلامي ، غمس عقه وقلمه فيه ، ثم قال كلمة باقية ، كلمة ما أحوجنا الى الوقوف عندها كثيراً حتى نكون له ـ كما نال من قبل عن النبي ـ : كابن له بل أجود !

١٣ - شمس الدين الكيزاني

كان لمحمد بن ابراهيم بن ثابت بن فرج لقب هو « شمس الدين » ، وكنية هي «أبو عبد الله» ، أما شهرته فهي « ابن الكيزاني » نسبة الى صناعة الكوز .. والذى يهمنا من هذا الرجل أنه كان وجهاً من وجوه عصره فى الفقه ، والتّصوف، والوعظ ، والشّعر ، وأنّه كان واحداً من الذين عملوا على تصفية الفكر الفاطمي فى مصر ، وتحويل الأمر الى من يطلق عليهم اسم أهل السُّنة ، ولقد كان هذا استجابة للرأي الحاسم والأخير الذى تكوّن عند المصريين فى هذه الفترة .. ذلك لأن الدعاية الفاطمية التى كانت تؤكد نظام الحكم الفاطمي كانت قد أخذت تضعف ، ويتلقاها كثير من الناس فى الوقت نفسه بعدم المبالاة ، ولعلّ مما ساعد الناس على هذا أنّ

الصليبيين تمكنوا من الاستيلاء على بيت المقدس عام ٥٠٣ هـ ، وأن البلاد قد ظل يتلاعب بها لمدة سبع سنوات الوزيران شاور وضرغام ، في الوقت الذى كان فيه الخليفة الظاهر مكبّاً على اللّهو دون أن يدري حقيقة ما يدور حوله ، فلمّا قتل حدث هذا الفراغ السياسي الذى جعل الناس يتطلّعون الى منقذ ، ولقد كان المنقذ فى نظر هؤلاء هو السلطان نور الدين زنكى حاكم سوريا .

.. وبالاضافة الى هذا فقد نزل بالناس القحط ، والتلاعب بالأسعار . وقصر ماء النيل عن الوفاء ، وأصبح كل شيء يتداعى . ويسلم نفسه الى صلاح الدين الأيوبي الذى حضر الى مصر لانقاذها من قبل السلطان نور الدين زنكى ، ومعنى هذا أن الأمر كان مهيئاً لابن الكيزاني ، ذلك لأنه كان فى طليعة الساخطين على الحكم الفاطمي الذى كان يرى ـ فيما يرى ـ أن الخليفة معصوم ، وأن الناس يجب أن يسلموا

أمورهم اليه ، فحين يقول شاعر مثل ابن هانيء الأندلسي مثلا فى المعز لدين الله الفاطمي :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهَّار

فان الأمر يجب ألا يحمل ـ كما يذكر نقاد الأدب ـ على المبالغة ، ولكن على صدق الشاعر فى تعبيره عن النظام الذى يحكم الدولة .

ومهما يكن من أمر فان ابن الكيزاني كان يتلاقى فكرياً وعاطفياً مع ما يمثله نور الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي ، ومن هنا عمل على انعاش تيار أهل السُّنة والجماعة ، بعد أن ضربه الفاطميون فى الصميم ، وشتتوا أنصاره ، وحكموا على معتنقيه بالصَّمت ، وفى الوقت نفسه كان يسيطر مناخ فكري واحد ، ولم يكن هذا المناخ قوياً ولكنه كان ضعيفاً الى حد الوهن ، وقد انعكس هذا على أشياء كثيرة يجيء فى مقدمتها اللغة ، ومن هنا رأينا ابن الكيزاني ومن حوله خلصاؤه وتلاميذه يسرعون بالتجمع حول

صلاح الدين . وقد اجتهد فى أن يوضح للناس أنهم فى صحراء فكرية شاسعة ، ولقد استقدم كثيراً من المتصوفة ، وكثيراً من شيوخ أهل السُنة، وبهذا يكون قد ثبت حكم صلاح الدين من جهة ، ويكون من جهة أخرى قد حرّك عقول الناس على العديد من الجبهات .. وقد كان نتيجة هذا كله أن استعاد الناس ثقتهم فى أنفسهم ، وفى أنهم قادرون على رفع العار الذى حل بالعرب والمسلمين حين تمكن الصليبيون من الاستيلاء على عدد من بلاد المسلمين ، وفى مقدمتها بيت المقدس!

ولقد تمكن ابن الكيزاني فى هذه الفترة من التكوين الحاسم لتلك الطائفة المسمّاة بالكيزانية. والتى كان صميم دعوتها يقوم على المطالبة بنقاء العقل والقلب واللغة ، ذلك لأن المسلم مطالب بأن ينقي نفسه بين الحين والحين حتى يغدوا دائماً سلسلة متفجرة بالنور ، بل انه مطالب فى الكثير من الأحوال بأن يتحوّل الى نور خالص .. وهو من أجل هذا لا بد أن يكون بسيطاً الى الحدّ

الذى يجعله يزهو على السلاطين، وعطوفاً الى الحدّ الذى يجعله يتبنّى كل شىء فى العالم ، وزاهداً الى الحدّ الذى يجعله من خلال قناعته يمتلك العالم ، ولنتأمل فى هذا النّص الذى أورده ابن الزّيات فى كتاب (الكواكب السيّارة فى ترتيب الزيارة) ، فقد جاء فيه : « .. ويأتيه الطالب ليقرأ عليه . فيجده جائعاً فيطعمه ، وعرياناً فيكسوه ، ويعطيه العمامة حتى انه اذا وجد فى نعله شيئاً مقطوعاً يخرزه بيده ، وجاءه يوماً أمير مصر ، ومعه رسول الخليفة ، فدخلا عليه وهو يدوّر الدولاب بيده ، ففرش لهما بُرشاً مِن خوص ، فقعدا عليه ، وسألاه الدعاء، فدعا لهما ، فأخرج له الملك ألف دينار ، فردها . فقال له السلطان : ان لم تأخذها لنفسك فتصدّق على أصحابك بها ، فقال : وأصحابى لا يحتاجون اليها ، فانى أعمل على هذا الدولاب فى كل يوم بثلاثة دراهم ونصف فآكل من ذلك بنصف ، وأتصدق بثلاثة دراهم على أصحابى

وأهلى وجيرانى ، فخذها وانصرف ! » وقد علق الدكتور « علي صافي حسين » فى كتابه (ابن الكيزاني) على هذا الموقف فقال : «وقصارى القول فى ابن الكيزاني من الوجهة الاقتصادية أنه كان يعد فى زمانه ـ حسب اصطلاح عصرنا الحاضر ـ داعياً من دعاة عدالة التوزيع ، وزعيماً من زعماء الاصلاح الاجتماعي » .

■□■

ولقد كان مما جعل حياة ابن الكيزاني خصبة أنه لم يتسكع على أبواب المسئولين ، ولم يرهقهم بشيء لنفسه أو لجماعته ، فقد كان كل ما يهمه تصفية الحكم الفاطمي الذى كان قد وصل الى حدّ التهرؤ ، والدفع بآراء أهل السُّنة الى الصدارة . وقد تم له هذا كله ، فلما مَنّ الله عليه بما أراد ، لم يمد يديه للحصول على الثمن . ولكنه قال للناس : ان بين أضلاعكم جوهرة فحافظوا عليها ، والسعيد السعيد هو من عاش فى نورها الحقيقي ، أما أن يطفىء الانسان نوره ،

ثم يلهث وراء أنوار الآخـرين ، فانه سـيكون الخاسر . ذلك لأنه سيظل دائماً فى انتظار البرق ليسير فيه خطوة أو خطوتين . بينما قنـديل الله معلق بين أضلاعه .

■□■

وابن الكيزاني الى جانب مواهبه المتعـددة فى التعليم والوعظ والتصوف واحسان اللغة ، كان شـاعراً رقيقاً يعبِّر برهافة عن أشواق روحه ، وعن وجهـة نظره السـاطعة التى تتمثل فى أن على الانسان دائماً أن يعمل ـ بدأب ـ على تنقية نفسه .. وأن يتحول الى نور ، وأن يغوص داخل نفسه غوصاً شديداً للوصول الى اللؤلؤة ، ولنتأمل أبياتاً من شعره الصوفي :

اصرفـوا عنى طبيبى
ودعـونى وحَبيبى
عللوا قَلبى بذكـرا
هُ فقـد زاد لهيبى

طاب هتكى فى هواه
بين واش ورقيب

لا أبالى بفوات النفس
مادام نصيبى

ليس من لام وان
أطنب فيه ـ بمصيب

جسدى راض بِسُقمى
وجفونى بنحيبى !

وأهمية هذا هو الرد على الذين يقولون ان شعراء « أهل السُّنة » لا يحسنون التجول بين بساتين الشعر . ذلك أنهم يقولون روافد الشعر عند هؤلاء ناضبة ، ثم انه استطاع فى شعره أن يتخلص من المفاهيم والرموز التى كانت تحكم الفترة الفاطمية .. وأخيراً فان الفنون التى كانت مقدمة فى هذه الفترة هي الفكاهه ، والمطارحة ، والاجازة ـ وكذلك فن التَّمليط الذى لا يخرج عن فن الاجازة الا فى أن الشاعر

يعلم ما سيقدم به من ارتجال لهـذا يستعد له ـ ولكن ابن الكيزاني تجاوز هذا كله الى قضـية كبيرة هي قضية أشواق الانسـان الى ربه ، والى ارشاد الناس الى ما فيه صلاحهم ، ومن شعره فى هذا المجال قوله :

قف على البـاب طالبـاً
ودع الـدّمـع سـاكنا

وتوسـل به اليـه
مـن الـذنب تائبا

تلق من حسـن فضـله
عنـد ذاك العجائبا

ثم خف منـه أن يرا
ك عـلى الذنب راكبا

فهو يجـزى على اليسـير
ويُعطـى الرغائبا

زينـة العبـد بالتّقى
فاجعـل الصدق صاحبا !

ثم .. لقد كان من ثمار هذا النظام أنه دحر الصليبيين ، واسترد بيت المقدس ، واسترد لغة جديدة للناس . ولقد كانت وفاته ـ كما ذكر ابن خلكان ـ فى عام ٥٦٢هـ ، ثم نقل الى سفح المقطم حيث مازال ضريحه يزار .. ضريح ما يكاد الانسان يدخله حتى يذكر فكرة «النقاء» التى دعا اليها ابن الكيزاني .. وعاش لها ابن الكيزاني .

■ □ ■

١٤ – أبو حيان الأندلسي

يُعتبر محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغُرناطي .. من تلك الثمار الاسلامية التى تدلَّت من شجرة الثقافة فى الأندلس ، وابتداء لقد نضجت هذه الثمرة التى كان ميلادها عام ٦٥٤هـ على تلك الجذور العريقة التى تقوم عليها الثقافة الاسلامية ، فقد رأته غرناطة ينهل – بشراهة – من القرآن الكريم ، ومن الحديث الشريف ، ومن علوم اللغة .

وعلى عادة الناس فى هذا الزمان كانوا يحسون أن العالم الاسلامي رقعة واحدة ، وأنهم يستطيعون أن يتحركوا ما شاءت لهم الحركة على كافة خطوط الطول فيه وخطوط العرض ، ومن هنا كان على رجال « المغرِب » أن يشرقوا ، وكان على رجال « المشرق » أن يُغرِّبوا ، حتى

يتعرفوا على هذا العالم الكبير الذى يملكونه ، والذى أعطاه لهم الاسلام !

.. ومع أننا نعرف أنه سافر الى مكة ، وذهب الى بلاد الشام ، وتوقف عند كثير من البلدان فى طريقه الى القاهرة ، الا أننا نراه أخيراً يرضى بالقاهرة مُقاماً حتى تكون وفاته عام ٧٤٥هـ ، فهو قد حضر الى القاهرة حين كانت تحت حكم « المماليك البحرية » . وهو قد وجد فى نفسه رضى على هذا الحكم . خاصة بعد أن وجد أن هؤلاء المماليك قد نجحوا فى صدّ هجمات المغول على مصر هجوماً بعد هجوم ، كما نجحوا فى خلق كيان موحد بين مصر والشام . وعلى كل فقد ساعده كل هذا على الاستقرار النفسي ، وعلى التفرغ للكتابة . وقد تحدث عن وصوله الى مصر فقال : « .. وأنا أتوسد أبواب العلماء ، وأتقصد أماثل الفُهماء ، وأسهر فى حنادس الظلام ، وأصبر على شظف الأيام ، وأوثر العلم على الأهل والمال والولد ، وأرتحل من بلد الى بلد ،

حتى ألقيت بمصر عصا التسيار وقلت : ما بعد عبادان من دار » . وعلى الرغم من كل هذا فقد ظل دائم الحنين الى الأندلس على نحو ما نعرفُ من قوله :

يا فُرقة أبدلتنى بالسرور أسى
وأسهرت ناظراً قد طالما نَعَسا

أنّى يكونُ اجتماع بين مفترق
جسم بمصر ، وروح حَل أندلسا

وعلى كل فقد رضي عنه الحكام فى هذه الفترة، وسمحوا له بالتدريس فى مدارس القاهرة ، كما تولى منصب « الاقراء » بجامع الأقمر ، وقد وصفه الرعيني بقوله : « .. هو شيخ فاضل ما رأيت مثله ، كثير الضحك والانبساط ، جيد الكلام ، حسن اللقاء ، جميل المؤانسة ، فصيح الكلام ، طلق اللسان ، ذو لُمَّة وافرة ، وهمة فاخرة ، وله وجه مستدير ، وقامته معتدلة التقدير ، ليس بالطويل ولا بالقصير » كما قيل

عنه انه « ثبت فيما ينقله ، مُحرر لما يقوله ، عارف باللغة ، ضابط لألفاظها ، وأما النّحو فهو امام الناس كلهم فيه ، لم يذكر معه فى أقطار الأرض غيره فى حياته ، وله اليد الطّولى فى التّفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم ـ خصوصاً المغاربة ـ وتقييد أسمائهم على ما يتلفظون به من امالة وترقيق وتفخيم لأنهم يجاورون بلاد الافرنج ، وأسماؤهم قريبة من لغاتهم وألقابهم » ، وقد ذكرت عنه الدكتورة « خديجة الحديثي » أنّه كان على اطلاع واسع بلغات أجنبية كالحبشية والفارسية والتركية . وله فى ذلك كتب وصل بعضها ، وضاع البعض الآخر .

■□■

من كل هذا نرى أن الرجل كان قمة فى عصره، وكان متدفقاً فى عطائه . ومن هنا فقد كان جديراً بهذه الأمداح الكثيرة التى كتبها فيه ـ باخلاص وبمودة ـ القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ،

وشرف الدين بن الوحيد ، والصَّفَدي ، وأحمد ابن علي بن عبد الكافي السُّبكي ، وغيرهم .. وما أعمق قول الشيخ صدر الدين بن الوكيل فيه ، وقد كان مما قاله :

قالوا : أبو حيانَ غير مدافع
ملكُ النُّحاة فقلتُ : بالاجماع

اسمُ الملوك على النقود ، واننى
شاهدتُ كُنيَتَهُ على المصراع !

وحقيقة لقد بهر الرجل الكثيرين فى عصره وغير عصره ، ففى عصرنا ذكر (أحمد أمين) أن مصنفاته فى العلوم المختلفة نحو خمسة وستين كتاباً ، لم يصل منها الا عشرة ـ كما تعرّض لهذه المؤلفات المؤلفان الأستاذان «سدني جليز» ، و «بلانثيا» . أما الدكتوران « أحمد مطلوب » و « خديجة الحديثي » فهما لا يكفَّان من فترة بعد فترة ـ بدأب وصبر ـ على اخراج مكتبة

أبى حيان الأندلسي ، وقد صدر منها الـكتب الآتية :

١ ـ من شعر أبى حيان الأندلسي .

٢ ـ ديوان أبى حيان الأندلسي .

٣ ـ تحفة الأريب بما فى القرآن من الغريب.

وقد جاء فى مقدمته : «.. لغات القرآن العزيز على قسمين : قسم يكاد يشترك فى فهم معناه عامة المستعربة وخاصتهم كمدلول السماء والأرض وفوق وتحت ، وقسم يختص بمعرفته من له اطلاع وتبحر فى اللغة العربية ، وهو الذى صنف أكثر الناس فيه وسموه غريب القرآن، والمقصود فى هذا المختصر أن نتكلم على هذا القسم وأن نرتبه على حروف المعجم ، فأذكر فى كل حرف منها ما فيه من المواد ، معتبراً فى ذلك الحروف الأصلية لا الزائدة ، مقتصراً فى ذلك على شرح الكلمة الواقعة فى القرآن العزيز » .

.. ومن ديوان أبي حيان نتعرف على الدقة في استخلاص المعاني ، ونتعرف على تقصيه في رسم الصورة ، بالاضافة الى نقاء اللفظ ، والاهتمام بالموسيقى ، ومن شعره نتعرّف لأول مرة في الشعر العربي كله على تلك اللوعة الحارقة التي تجعله يقفُ فيطيل الوقوف عند الرثاء للابنة ، لقد رثى ابنه وزوجه عجلا ، ولكنه وقف وقفة طويلة ومؤثرة عند موت ابنته ، فله فيها اثنتا عشرة قصيدة ، وقد وصل به الأمر الى أنه طلب من الملك الناصر أن يدفنها في بيته ، فلما أذن له في ذلك قال تلك القصيدة التي أولها :

ضريح بنتي جعلت بيتي
وقلت : ليتي أموت ليتي !

ولقد أسهم في كثير من الأغراض الشعرية المتعارفة ، ولكن وقفته الجديدة كانت موقفه الحاد من المتصوّفة ، كما أنه جهر بالقول للقرامطة والزنادقة في عصره على حد ما نعرف من قوله :

أرى كل زنديق اذا رام نشر ما
طواه ُ ادّعى أن صار فى الناس صالحا

فيستخدم ُ الجُهَّال يَنهب ُ مالهم
ويُبدى لهم كِذباً على الله فاضحا

قرامط دجَّالون سِنخ ُ ضلالة
كلاب على الاسلام أضحت ُ نوابحا !

■□■

ولقد كان أشدّ ما آلمه ضعف ُ بصره فى أواخر عمره ، فقد كان هذا وراء العديد من شكواه ووراء ضيقه بالناس والحياة ، غير أن بصيرته ظلَّت نافذة ومضيئة وقادرة على العطاء ، وهكذا كان بحق طائراً سماوياً وُلِد فى غرناطة ، وحلَّق فى سماء العالم الاسلامي ، ثم قال كلمته فى سخاء وتدفق من القاهرة .

١٥ ـ القلقشندي

حين نذكر « الموسوعات » التى تغمر العالم ، والتى تُعتبر من الكتب الأولى الضرورية التى لا يستغنى عنها الانسان القارىء ، وحين نذكر مثلا أن عدداً من الأجانب قد أصدر عملا هاماً يخصُّ حضارتنا هو « دائرة المعارف الاسلامية » .. حين نذكر هذا يجب ألا ننوح ـ كالعادة ـ على أنفسنا ، وألا نسرع فنذكر العُقمَ الكامن فى الخلية العربية ، وأنه لا أمل فى شىء نُتقِنُه ، ونقدمه فى صورة موضوعية .. ذلك لأن «التأليف الموسوعي» شىء تَميَّزت به الحضارة العربية ، وسبقت به غيرها فى الوقت نفسه ، ولقد وصل هذا النوع الى قِمَّة ازدهار فِي أعقاب القرون الوسطى ، وفى تلك الفترات التى قَسَت فيها الحياة على الحضارة العربية ، وبدأت توجِّه اليها

الضربات واحدة بعد الأخرى ـ فى غير رحمة ! ـ ومن هنا كانت تلك الالتفاتة الذكية من عدد من المثقفين المسلمين ، فقد قام في أنفسهم أنه لا بدّ لهم من الحفاظ على هـذا البنـاء الحضاري الذى أخذ يحاصر ، ولما كانوا لا يملـكون الا الكلمة عكفـوا على جمـع وتدوين كل ما أثمر العقل العـربي ، وكل ما تدفق به الوجدان العربي ، وفى ضوء هذا لم تسقط الحضارة العربية كقيمة وكتاريخ ، حتى بعد أن تداعت ، ثم سقطت على أيدى الكثيرين من أعدائها .

.. لقد فعل الكُتاب الموسوعيون أشياء كثيرة، لعلَّه يجىء فى مقدمتها ما يفعله « الكمبيوتر » الآن ، فقد كانوا يجمعون معلوماتهم فيما يسميه « ابن رضـوان » كُنَّاشـاً ، وبوسـاطة هـذا الكُنَّاش كانت تقـدم المعلومات بدقة الى حـد كبير ، ولقد كان فى مقدمة هؤلاء الذين خدموا هذا الاتجاه بِعمق وحذق « أبو العبَّاس أحمد ابـن عـلي بـن أحمـد بـن عبـد الله » الملقب

« بالقَـلقَـشندي » نسبة الى احدى قرى القليوبية فى مصر اسمُها « قَـلقَـشنده » .

لقــد كان ميلاد أبى العبَّاس عام ٧٥٦ هـ ــ ١٣٥٥م ، والذين تعرضوا لتاريخــه قالوا انه كان معديّ المولد ، عربي الأصول ، ولقد عكف على ما يعكف عليه الراغبون فى العلم فى عصره ، وقد رأته القــاهرة . والاسكندرية ، ينهل من ينابيع العلم ، وقد حلا له ان يتفقه بصفة خاصة بمذهب الامام الشــافعي ، ثم سنحت له فرصــة ذهبية حين التحق «بديوان الانشاء» عام ٧٩١هـ ، ولمــا كان يعرف قيمة هذا الديوان فقــد ظل به حتى كانت وفاته عام ٨٢١هـ ــ ١٤١٨م ، وقــد عبَّر عن هذا فى كتابه المشهور « صبح الأعشى » فقــد قال : ليس فى منــزلة خَدَمِ السلطــان ، والمتصرفين فى مُهماته ، أخصُّ من كاتب الرسائل ، فانه أول داخل على الملك ، وآخــر خارج عنه ، ولا غِـنى له عن مفاوضته فى آرائه ، والافضاء

اليه بمهمَّاته أو اطلاعه على حوادث ديوانه ، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصَّته ثقته به !

وقيمة العمل في الديوان يوضحها الدكتور « أحمد عزت عبد الكريم » فى قوله : كان بمثابة وزارات الخارجية فهو الديوان الكبير الذى تردُ اليه جميع المكاتبات الى السلطان من داخل دولته وخارجها ، وتصدرُ عنه جميع المكاتبات على لسان السلطان الى ملوك الدول وحكامها الذين ربطتهم بسلطنة المماليك علاقات ودية أو عدائية .. ومعنى هذا أنه كان فى ديوان الانشاء أميناً على سر الدولة مُطلعاً على خفايا « الأرشيف » الرسمي الجامع لأسرارها ، ومعنى هذا ـ كذلك ـ أنه وصل الى ينابيع أخصب موسوعة اسلامية فى هذا السِّفر الجامع المسمَّى (صُبح الأعشى فى صِناعة الانشا) والذى يقوم أساساً على مُقدمة ، وعشر مقالات ، وخاتمة ، وهو ينتقلُ خلالها جميعاً بين ما يهم كل القارىء العربي من حديث عن اللُّغة ، الى حديث عن الدين الى حديث عن

تقويم البُلدان ، الى حديث عن التاريخ الاسلامي . مع التركيز الشديد على كل ما يتصل بأصول صنعة الكتابة .. بحيث نراه يفجر بذكاء فى قارئه قيمة قومية . ذلك لأنه يقدّم له حضارة ذكية متفردة بعدد من الخصائص ، بحيث لا يستطيع الانسان حين يعيش فيها بعمق أن يجنح الى الذُّل الحضاري ، أو الاغتراب ، أو العبث ، أو التوحش ، أو النَّفي مما توقعه أحياناً الحضارات الضاغطة بالانسان !

.. وعلى كل فهو فى مقدمة هذه الموسوعة يقول: « .. وكنتُ فى حدود سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، أنشأتُ مقامة بنيتُها على أنَّه لا بد للانسان من حرفة يتعلَّقُ بها ، ومعيشة يتمسَّك بسببها ، وأن الكتابة هي الصناعة التى لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها ، ولا يجوزُ له العدولُ عنها الى ما عداها ، وجَنَحتُ فيها الى تفضيل كتابة الانشاء ، وترجيحها وتقديمها ، على كتابة الأموال وترشيحها .. الخ » ثم يختم

هـذا العمل الجَليل بقوله فى تواضع عَذب :
« .. ورحِمَ اللهُ من وقع فيه على سَهو أو خطأ فأصلحـهُ عاذراً لا عاذلا ، ومنيـلا لا نائلا ! »
ومن الملاحظ أنَّه لم يكن مجرد ناقل من هنا أو هناك ، ذلك لأنه كان يُمَحِّصُ كلَّ ما يصلُ اليـه ، بل كثـيراً ما نراهُ يقسـو عـلى الذين لا يتروّون ، أو الذين يُبدون الغَرَضَ فيما يقولون ، على نحـو ما نعرف من نقده الشـديد لصلاح الصفدي ، وللشريف الادريسي ، وبصفة عامة نجده في طليعةِ المؤكِّدين لمـا يعرفُ الآن « بعـلم الوثائق » ، ونجـده كثـيراً ما يتخطّى الحادثة الى الدَّوافع التى وراء الحـادثة ، فهو يضعُ مثلا الى جانب بيت المقدس قوله : « .. ان البابا قد استثار الناس ، وأغلق دونهم الكنائس، ولبس وأَلبسـهم الحـداد حتى يسـتعيدوا بيت المقدس ! »

■□■

وجهد أبي العبّاس القَلقَشندي لا يقف عند حدّ موسوعته الكبيرة ، وانما يتعدّاه الى شعر جيد ، والى عدد من المؤلفات منها :

١ ـ قلائد المرجان في قبائل العُربان .

٢ ـ ضوء الصُّبح المُسفر وجَنَى الدوح المُثمر .

٣ ـ الغيوثُ الهوامع في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع .

٤ ـ مآثر الانافة في رسوم الخلافة .

٥ ـ نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب .

.. وقد صدق فيه قولُ صاحب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) حين قال : « .. شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القَلقَشندي ، الشافعي ، نزيل القاهرة ، تَفَقّه وَمهر وتعانى الأدب ، وكتب في الانشاء ، وناب في الحكم ، وكان يستحضر كتاب (الحاوي) وكتب شيئاً على جامع المختصرات ، وصنف كتاباً

حافلا سَمَّاه (صبح الأعشى في معرفة الانشا) ، وكان مستحضِراً لأكثر من ذلك ، وصنَّف غَير ذلك ، وكان مفضالا وقُوراً فى الدولة » .

■□■

.. تلك قطرات من الضوء على حياة رجل أحب الثقافة العربية ، وطالت اقامته ـ وقامته ـ بها ، وحين أحسَّ بهذا الشموخ الانساني الذى يولِّده كل من يعرف حضارته حقَّ المعرفة ، ويفهمها كل الفهم .. قدَّمها من جديد الى الناس .. قدمها فى بستان رائع من الشذى ، ومع أنه مضى عليها الكثير الا أن عبيرها العقلي ، وشذاها الوجداني لا يزال يملأ حياة العرب ويجعلها قادرة على التماسك والشُّموخ رغم المحن .. ورغم الظلام ، فمن الصعب لمن يتعمق آثار هذه الحضارة أن يهون ، أو يتفتَّت ، أو يُصبحَ ـ تحت سياط الغطرسة والفظاظة ـ خارج حركة التاريخ ، ذلك لأن فى هذه الحضارة

جانباً غير قابل للذبول أبداً وهو الاسلام ..
وأخيراً ففى هذه الحضارة - التى يشهد على أصالته صبح الأعشى - شيء لا يموت .

* * *

وأخيراً ..

.. فمن الواضح أن الحضارة العربية قد ركزت على الشخصيات ، وعلى ابراز دورها في كافة الميادين ، وما أكثر الكتب التى تحدثت عن الشخصيات ، ونظرة واحدة الى كتب « الطبقات » توضح هذا ، ومع أنه كان هناك تركيز على الصفوة على نحو ما نعرف من « أعلام النبلاء » الا أن التاريخ العربي لم ينس الحديث بغزارة عن الصعاليك ، والأغربة ، ورجال الكُدية .. الخ ، المهم أنه كان يهتم بالانسان ، ويستثمر قدراته ، ويحرص على ظاهرة « الاقتداء » فى كل ما هو نافع وخير من غير مصادرة ، ومع أنه لم ينس الحديث - للموضوعية - عن بعض الجوانب السلبية فى هذا الانسان ، الا أن تركيزه دائماً كان على الجانب الطموح والمبدع فى العديد من الميادين !

صحيح أن هناك حديثاً عن « الفرق » ورجال الآراء والأهواء ، ولكن هذا لم يُقدم فى مساحات تجريدية ، وانما قُدم فى الغالب من خلال شخصية الانسان ، وحقه فى التفرد والخصوصية ، ومن يتجول على رقعة الحضارة العربية يجد هذا التنوع المذهل للشخصية من خلال اطار عام شامل هو

اطار الحضارة العربية .. ولعل فى هذا رداً على هؤلاء الذين يؤكدون على أن الانسان العربي لم يكن انساناً فرداً بقدر ما كان لمحة متكررة من لمحات القبيلة ، وبقدر ما كان صوتاً رتيباً من حنجرة الاسلام بعد أن جاء الاسلام ، واذا كان هذا قد نُظر اليه من وجهة نظر أدبية صرفة تقول ان الأدب العربي خال من أنماط ونماذج كبيرة - لهاملت وعطيل ومكبث مثلا - فان هذا ليس صحيحاً على اطلاقه ، ثم ان التراث العربي كله وبخاصة الجانب الفكري منه يرتبط بمواقف حاسمة فيه بتاريخ الرجال .. رجلا رجلا .. وموقفاً موقفاً !

.. وما يهمنا هنا هو أن نؤكد على أن هذه الحضارة لا تضيع الانسان وانما تدفعه تماماً الى التميز ، والتفرد ، وأن هذه الحضارة فى صميمها لم تقف موقفاً عنصرياً من الانسان ، وانما ساعدت الانسان - بصرف النظر عن جنسه ولونه وطبقته - على الابداع والتألق ، فهي منذ البدء الصحيح قد أدخلت فى نسيجها الحر بلالا الحبشي ، وصهيباً الرومي ، وسلمان الفارسي - أو بتعبير عصري ما يرمز الى دول الشرق والغرب والعالم الثالث - صحيح أنه كانت هناك شعوبية - وما زالت - تكيد لهذه الحضارة ، ولكن هذا ظل دائماً الاستثناء على قاعدة تقول ان حضارتنا - نظراً لعالمية الاسلام - سوّت بين كل الناس ، وهذه المساواة قد أعطت الكثير لهذه الحضارة ، كنوع من العطاء المتبادل بين الفكرة الكبرى وبين الانسان !

.. ولن يأخذك العجب حين تجد فى هذا الكتاب عدداً من الشخصيات البعيدة عن الأرومة العربية ، ولكنها مع ذلك قد أعطت اللغة العربية الكثير ، ذلك لأن هـذه الشخصيات لم تنقسم على نفسها ، ولأنها أحبت أن تقول كلمة الحق ، ولأن الحضـارة التي تعيش فى مناخهـا قد ساعدتها على الابداع .. وبعبارة أدق لأنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من هذه الحضارة ، فالعربية قبل كل شيء هي « اللسان » .

.. المهم اننى حشدت لك أفكاراً داخل عدد من الشخصيات الكبيرة ، أو شخصيات داخل أفكار فى حقول العربية ، صحيح أن بعضها ليس ساطعاً تماماً ، فهنـاك جانب معتم فى بعض هـذه «المنظومة» ولـكنني تعمدت ذلك ، ليمكن تداولها فى كل العصور ، وبخاصة اذا عرفنـا ان الحضارة العربيـة فى أغلبها لم تكن تقدم تخصصات دقيقـة ، وانما كان الباحثون موسوعيين .. على أن الظاهرة الملفتـة للنظر هنا أن الجادين فى هذه الحضـارة كانوا يهتمون بلغتهم فى كل الميـادين ، فالباحثون المتمكنون كانوا يبتعدون عن الركاكة والمعـاظلة .. الخ .

ومن الجدير بالذكر هنـا أننـا حين نقدم نماذج أدبيـة لأبنائنا نتخيرها من هذه النماذج الجهمة أو البديعية ، كنوع من عشق الجزالة والزخرفة . ولكن الأليـق بهذا العصر أن نقدم لهم نماذج فيها فكر ، وبعبارة أدق علينا أن نلتفت الى التراث العلمي ، فهو لا يخلو من عناصر الأدب ، ومالم نفعل

ذلك سيظل الانسان فى هذا العصر بعيداً عن ايقاع الحياة ، وعن ايقاع تراثه فى الوقت نفسه !

واخيرة ـ مرة أخيرة ـ

هل ترانى وفقت فى أن أقدم لك خمسة عشر كوكباً .

أرجو ذلك .. ■■■

الدكتور

عبده بدوي

الفهرس

سلسلة المكتبة الصغيرة

(المجموعة الأولى)

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف
١	توثيق الارتباط بالتراث العربي	عبد العزيز الرفاعي
٢	جبل طارق والعرب	عبد العزيز الرفاعي
٣	خمسة أيام في ماليزيا	عبد العزيز الرفاعي
٤	كعب بن مالك	عبد العزيز الرفاعي
٥	أبو محمد البطال	يحيى محمد ساعاتي
٦	أبو عمارة	عبد العزيز الرفاعي
٧	أبو دلف	د/محمد عبد المنعم خفاجي
٨	قصائد من مقبل العيسى (شعر)	مقبل العيسى
٩	من عبد الحميد الكاتب	عبد العزيز الرفاعي
١٠	قريتي الخضراء (شعر)	أحمد قنديل

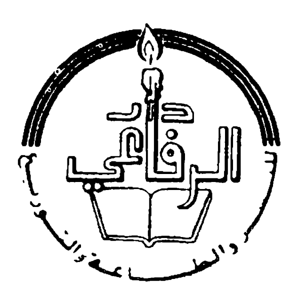
(المجموعة الثانية)

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف
١١	كرائم النساء	أحمد محمد جمال
١٢	الغزو الفكري	عبد الله عبد الجبار
١٣	بنو الأثير .. الفرسان الثلاثة	محمد الحمدان
١٤	أطياف من الماضي	محمد عبد القادر فقيه
١٥	من أجل الشباب	أحمد محمد جمال
١٦	الحج في الأدب العربي	عبد العزيز الرفاعي
١٧	من أمهات الكتب	العوضي الوكيل
١٨	سوق عكاظ	علي حافظ
١٩	ضرار بن الازور	عبد العزيز الرفاعي
٢٠	قاطع الطريق (شعر)	أحمد قنديل

(المجموعة الثالثة)

(المجموعة الرابعة)

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف
٣١	الشباب دراسات ولقاءات	أحمد محمد جمال
٣٢	فيلسوف	محمد حسن فقي
٣٣	امام الصابرين ابن حنبل	عبد العزيز المسند
٣٤	المتنبي والقرامطة	د/محمد محمد حسين
٣٥	الأعمش الظريف	أحمد الضبيب
٣٦	الأمير الشاعر تميم بن المعز	محمد عبد الغني حسن
٣٧	الوراقة والوراقون	لطف الله قاري
٣٨	أبو العلاء اللاهوري	د/ظهور أحمد أظهر
٣٩	وقفات مهمة في التاريخ الأفريقي	عبد الله حسن
٤٠	نجوم في آفاق العربية	د/عبده بدوي



المقر الرياض ـ الملز ـ تفرع شارع جرير ص.ب (١٥٩٠)

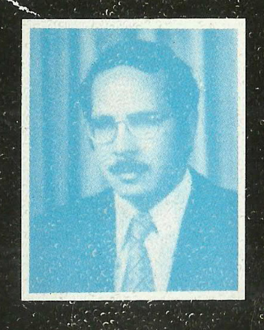
تلفون ٤٧٧٧٢٦٩ ـ برقيا : دار الرفاعي

المملكة العربية السعودية

ع الفـرزدق التجـارية AL-FARAZDAK PRESS

تلفون ٤٨٢٤٨٦٥ / ٤٨٢٤٩٨٣٠

ص.ب ١٧٩٨ الرياض ١١٤٤١



المؤلف بقلمه

- تخرج في جامعة القاهرة
- عمل سكرتير تحرير ومدير تحرير لعدد من المجلات التي كانت تصدر عن وزارتي الثقافة والإعلام منها: نهضة افريقية، والرسالة، والشعر
- بعد حصوله على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى عمل في جامعة ام درمان، ثم أعير من جامعة عين شمس الى جامعة الكويت، وفي الوقت نفسه رأس تحرير مجلة الشعر التي تصدر منذ سبع سنوات في القاهرة
- له عشرة أعمال شعرية توجت بالحصول على جائزة الدولة، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى
- أصدر عشرة كتب آخرها حصل على جائزة البحث العلمي لأعضاء هيئة التدريس بجامعة عين شمس
- مثل بلاده في العديد من مؤتمرات الأدباء ومهرجانات الشعر

عبده بدوي